تَدمُر

لنوران مجدي

عزيزتي سارة،

كيف حالك؟ وكيف حال من معك؟ أرجو أن تكونوا جميعاً بخير، ربما تظنين أنه لا يوجد أسخف من تلك المقدمة للرسالة وأن تلك الرتابة التي تتخللها لا تليق بما مررنا به وربما تعتبرينها إهانة للوقت الذي قضيناه متفرقين أو حتى إحتقاراً لما كان بيننا ولكني صادقة حين أخبرك أن "عزيزتي سارة" أخذت مني خمس ورقات لكتابتها وأن باقي المقدمة اضطرتني لشراء رزمة أخرى من الورق والأحق بالقول أن ما مررنا به والوقت الذي عشناه متفرقين كفيل بإدخال رتابة أكثر من تلك، ببساطة لأننا لا نعرف، أعنى بالطبع أعرفك ولكن أعرف سارة ما قبل أن نفترق ولكن للأيام حُكمها، لا أعلم شيء سوى أن الحيرة ستغمرك حين تقرئين هذا الخطاب، وهذا إن قرأته وإن وصل هو للعنوان الصحيح وهذا إن كان هذا العنوان الصحيح هو عنوانك وهذا إن كنت أنتِ على قيد الحياة، وكم أتمنى لو كنتي.

عزيزي القارئ،

أحب أن أوضح إمتناني لو كنتَ سارة حقاً وأقول لك أنني أحترق شوقاً لمراسلتك حرفياً، ولكن إن كانت الإحتمالات المزعجة هي التي تحدث في هذه الحياة، ولسببٍ سأستبعد أنه الموت حال دون أن تكونَ من أريد فلا داعي لأن تُكمل هذه الرسالة، لسببين أولهما لأنه ليس من شأنك وثانيهما أن هذا الخطاب سيُلقي عليك لعنة، نعم لعنة، ليس سحراً كما أُنزل على الملائكة ببابل ولكنه سيجعل سيل الأسئلة تطرق بكعوب أحذيتها في رأسك ليلاً وربما تستيقظ مذعوراً لأنك حلمت بما قلت وعزيزي أخيراً لأنك ستتعلق في هذة الرسائل بما تعلقتُ به سابقاً

وستأسرك الحكايات وربما يُمرضك انتهائها وستصيبك حُمى التساؤلات عما خُفي عنك في هذة الرسائل و الذي لا يعرفه سوى المقصود من هذة الرسائل، لذا عزيزي أسدي لي معروفاً ولا تُكمل.

عزيزتي سارة،

لنعد إلى موضوعنا، ربما تتسائلين لماذا راسلتك؟ ولماذا بعد كل تلك السنوات؟ ألم يخطر في بالي الكتابة لكِ قبلاً ومن أين تلك الشجاعة التي جعلتني اكتب لك كل ما كان في يوم ما، ولن أبخل عليكِ بمثل هذه الإجابة لو كنتُ أعرفها، ربما هو نور الله الذي أوحى لي بذلك، أو ربما هي فكرة شيطانية تفتح علي باب عذاب، لا أعرف ولكني سأحكي لكِ عما حدث.

أصبح الإستيقاظ قبيل الفجر عادة عندي ولا أكذبك حين أقول أنني لم أتعمدها فلم أكن أحرص على ذلك لصلاة الفجر أو ما شابه ولكن ما يوقظني كل يوم كان شيئاً آخر، خليط من الأحلام والكوابيس، الخوف والقلق وربما قليلاً من الشعور بالبرد، رغم تكرارها بإنتظام إلا أن عقلي لم يعتادها وبدلاً من التغلب عليها أصبحتُ أخاف أن يتكرر هذا للأبد، لذا فإن ليلي يكون عبارة عن نوم يدفعه التعب والإرهاق إلى نوم ملئ بالكوابيس المتكررة ثم الإستيقاظ والفزع والبقاء هكذا حتى يتبين الخيط الأبيض من الأسود من الفجر، فأُصلي الفجر وأشغل نفسي بأي شيء حتى يحين موعد عملي وفي الليلة التالية يتكرر هذا، ولم تكن تلك الكوابيس من النوع الذي يظهر فيه وحش ليلاً والدماء تغطي المكان ولم تكن كتلك التي يظهر فيها قاتلٌ بسكين وليست كالتي أسقط فيها من أعلى برج بل كانت أشد ألماً، فكرتُ في أن أكتب مخاوفي حتى لا تخيفني مرة أخرى ثم فكرت في أن أجد شخصاً يخيفها أو أن أجد جزءاً من حياتي لم يتغير وهكذا تذكرت العنوان الذي أعطيتني إياه حين غادرتي، عنوان عمك في مصر، أرجو أن

تكون ذاكرتي قد حفظته صحيحاً واستعادته صحيحاً كما استطاعت أن تتذكر يوم غادرتي وكما استطاعت أن تجعلني أحزن كما حزنت يومها وفي كل مرة أتذكره.

أتذكر بكائنا يومها قبيل الباب، أتذكر حينما اعتذرت لكِ وقلت لكِ أن نتصالح وننسى ما حدث، ثم أتذكر تكرارك لهذا العنوان، وإعتصارك ليدي ثم رحيلك، ولكن ما حدث بعدها تأبى ذاكرتي إسترجاعه كأنه لم يكن.

لذا عزيزتي سارة،

أرجوكِ كوني حي

الرابع والعشرون من نوفمبر 2017

صديقتك المخلصة

عزيزتي سارة،

دعيني أخبرك أمراً، يراودني حلماً مؤخراً منذ توقفت عن الكتابة لكِ، لذا قررتُ أن أعود للكتابة لكِ وأنّ أول ما سأكتب لكِ عنه هو هذا الحلم، في الحلم أسمع صوتاً للبحر وأراه أمامي ممداً بزرقته المعهودة ولكن ليست رائحته هي ما يداعب أنفي بل رائحة أمي، أشعر بالرمال تداعب قدماي ثم أُرفع برفق من على الرمال والتفت بوجهي لأرى ذقن أبي الخفيفة وأساريره الضاحكة ثم يلف بي مرتين أو ربما ثلاثة مرات، ويلتف العالم حولي لأجدكم جميعاً أمامي كما في السابق وحين أدور عزيزتي للبحر مجدداً أري أمواجه قد تصاعدت حتى اتصلت بالسحاب وفجأة يختفي الجميع ولا أسمع سوي صدى صوت لصراخك ومن ثم استيقظ.

العجيب في الأمر أنه في البداية لم يزعجني ذلك الحلم بل أصبح فرصة لرؤية وجوههم مرة أخري ولكن في كل مرة يتكرر فيها الحلم تتوه الملامح وتقل الرؤية وتصبح وجوههم مهتزة مشوشة وتختفي تلك الملامح الإنسانية فيهم فيصبح مرعباً أكثر ويخنقني أيضاً تكراره بذلك الشكل ولكن أكثر ما أرثى له عزيزتي هو عدم قدرتي على تذكر ملامحهم حين استيقظ، هل تصدقين ذلك؟

هذا الصباح لم أتحمل ذلك الذنب الذي تلقيه علي نفسي بعجزي عن تذكر ملامح لا يجب أن أتذكر سواها، لذا فتشت في أشيائي القديمة ولم أجد –للحسرة- سوى صورة لأخي.

أتتذكرين ذلك الصيف حينما وقع أخي في الحب أو حينما عرفنا أنه فعل، كان يوماً حاراً في الصيف وقد كانت أمي لتصفه بالمشمس وتبدأ في تنظيف البيت فمثل هذا اليوم لايُعوض، ولكن لسبب ما لم

تفعل أمي ذلك وجلست في صمت بجوار أحد النوافذ، ربما شعرت أمي بأخي، حينما تقابلنا في بيتي أخبرتك وذلك بكل سرية في غرفتي، إن أخي يبدو غريباً أو ربما قلت لكِ أنه يبدو لطيفاً فعلقتي أنتِ بأن ذلك غريب لا استطيع أن أحدد، ولكننا جلسنا نراقبه طوال اليوم و وجدنا ذلك مسلياً حتى أننا بدأنا في تحليل تصرفاته، حينما يقوم بغسل كوبٍ شرب منه فربما لم يلحظ ما يفعل، وعندما يُقبل رأس أمي فربما أصابته الحمى وحينما يجيب ما أطلب فربما أصابه مرض خطير وعلم أنه سيموت قريباً وهو يكفر عن أخطاءه ولكن عندما وافق على الذهاب إلي السوق فهذة طامة كبرى، قررنا أن هناك شئ خاطئ وكبير ويجب علينا كشفه، ولكننا لم نتوقع أبداً وجود فتاة وراء كل هذا، ولكن على أي حال فإننا قررنا عدم السكوت وعقدنا إجتماعات سرية شهدت عليها أماكن عدة وبعد خمسة أو ستة إجتماعات قررنا تتبعه، كان أمراً مرهقاً فقد كان كثير الخروج والحركة وبعض الأحيان كنا لا نلحقه بسبب عدم موافقة أمي أو والدتك، حتى جاء ذلك اليوم الذي قررنا فيه تتبعه في السوق.

كان سوق الحي يبعث في نفوسنا الحركة، كنت دائماً ألحظ صخبه وعشوائيته فالناس مجتموعون كل منهم يصرخ ولا يكاد يُسمع وقد تضيع خطاك المضطربة بين كثرة العابرين ويدفعك موجهم للخارج بعد محاولاتك البائسة للدخول، ولكن بعد أن ابتعدت عنه ورأيت الصورة كاملة فقد كان سوق الحي لوحة فنية ممتازة، تعلمين لو كانت يداي فيها شئ من المرونة لرسمته في لوحة كبيرة وبألوانٍ كثيرة، ربما سأرسم اللون الأخضر على الجوانب وأحيطها بصناديق بنية اللون وارسم طريقاً ضيق يحمل الكثير من الأرواح، فارسم إمرأة تحمل كيساً وباليد الأخرى تسحب ابنها و واحدة أخرى تمشي بجوار عجوز تساعدها على العبور بين الزحام ربما كانت أمها، خالتها،

جدتها أو ربما غريبة عنها، لا يهم فالمشاعر نفسها والمشهد نفسه، سارسم طفلاً يلعب مع قطة و والده ينهره وهو يحمل أخاه الأصغر بينما تتحدث زوجته مع البائع، وسارسم بائعاً ختياراً يدخن سيجارته بفمه المحاط بالشعر الأبيض، سارسمه نحيلاً وله عينان واسعتان محدقتان بالفراغ وكأنه ينظر إلي أفكاره، وفي نهاية الطريق سارسم شاباً طويلاً يحمل على وجهه ملامح الخجل والترقب والفرح وكلها ممزوجة ببعضها يحاول أن يخفيها ولا يفلح فتظهر أشياء منها، سارسمه مرتبك الخطى، مخفض الجبهة يراقب في صمت فتاة ربما لا تعلم بوجوده على الأرض حتى ولكنه يستمر في ذلك.

أخذنا الأمرُ كثيراً حتى ندرك أنه يراقب الفتاة، ولكننا تأكدنا وهدأت شكوكنا وقد علمنا سر تصرفات أخي الغريبة.

أتذكر عندما إستدار أخي و رأى ما نفعل، قُلبت ملامح وجهه وانتفخت عيناه، وبدأت مطاردتنا في السوق حتى وصلنا إلى بيتك وبقيت عندك حتى حلول الظلام وعندها اتصلت أمي تسأل عن سبب تأخيري حينها علمنا أن أخي لم يخبرها بشئ ولن يفعل، عندما عدت لم يكن هو موجوداً بالبيت وتغيب عن عشاء أو عشائين وعدا ذلك لم يتغير شئ فهو لا يتكلم، محدق في الفراغ أغلب الوقت يطيع أبي وأمي ويذهب إلى السوق.

ما لم أخبرك به عزيزتي هو أن هذا الأمر إستولى علي أسبوعاً أو أكثر، فأخذت أراقبه كلما كان بالبيت وأتساءل كيف يشعر الان؟ هل هو سعيد؟ أم خائف؟ أيفكر في إتخاذ خطوة أخرى أم يكتفي بسرقة النظرات كل إسبوع؟ أخبرتني أمي ذات يوم أن يوم ولادتي كان كارثة، لم تعني الإهانة أو الذم ولكنها كانت تحكي بصورة عادلة بعيدة عن عدسة الأم المحبة، قالت أن في ذلك اليوم قُبض على عمي، وحينما حام الخبر حول منزلنا وقرر أبي الذهاب إليه للمساعدة قررت

أنا أن أتحرر وأتنفس هواء الأرض الذي لن يستطيع عمي تنفسه لأعوام بعد ذلك، ولكن على أية حال لم يكن سوى أخي ذي السبع سنوات في البيت وأمي، قالت أمي أنه كان أذكى ولد رأته وأقول لك انا أنها ليست إلا عدسة الأم تظهر هنا، فأخذ أخي حقيبة وجمع لي ملابس قد اشترتها أمي وأخذ مالاً قد تركه أبي في المنزل، وتحاملت أمي واستندت عليه حتى خرجا وطلبا سيارة، وفي الطريق أوقفها أخي ليطلب من جارتنا وزوجها القدوم معانا ففعلا، وكأنه كان يعلم أن هذا سيحدث _تقول أمي_ فأُخبرها بأنها تدابير العزيز الحكيم، تنهرني فاضحك، على أية حال حينما ولدتني أمي وكنا قرابة المغرب وعندما شق صدري ذلك الهواء وبكيت أعادوني إلى أخي، تضيف أمي أن أول صوت للآذان سمعته كان صوت أخي وأنه منذ تلك اللحظة ولدت علاقة خاصة بيني وبين أخي، حينما عاد أبي كان لا يعرف أيحزن على أخيه أم يفرح لولادتي ففعل الاثنين بالتناوب، تارة في السماء وتارة على الأرض وأخي يقوم بالدورين معاً، أبي مرة وأخي مرة، ومع الوقت إنقطعت أخبار عمي وبالتدريج إعتاد أبي على غيابه وبدأ يتسلم دوره الأبوي كاملاً دون إنقطاع ولكن لم يتوقف أخي عن ذلك، ويوماً بعد يوم _وهذة روايتي أنا عزيزتي سارة_عندما كبرت بدأت أكره ذلك الجزء الآمر الناهي في أخي، ذهب أخي للجامعة في دمشق ولم يغير ذلك أي شئ فيه وعلى ذلك فقد كانت حياة أخي صندوقاً مقفلاً بمليون قفل فلا أحد يعرف عنها شيئاً، ولكن أخي فقد كان كما تقول أمي "حكيم" تصرفاته ذكية لذا تجنبت أمي الخوف عليه فهو متفوق في دراسته بعيد عن المشاكل، وأعني بذلك خارج البيت، محبوب من الجميع، قرارته من رأسه ولكن أغلبها سليمة، وترك هذا لأمي مقارنة أكمل خانتها أنا، فأغلب حوارتنا تنتهي بأن أخي يفعل وانا لا وأن أخي وانا لا، وهذا لم يخلق توتراً بيننا على العكس فقد كان أخي يدرك إختلافنا ويدافع عنه أحياناً أمام أمي، ربما

يذكر بعضاً من إنجازاتي القليلة أو يتصنع الغباء أحياناً ليترك لي المجال لإظهار ذكائي، وكان أبي يعلم كل ألاعيبنا فلا يتدخل وكذلك يعلم أسرار أخي ولا يفصح ولكن حينها تسألت هل يعلم أبي بهذا السر أيضاً، ولكن ما شغلني أكثر، هو لما قد يقع أخي لمثل هذة الأمور وكيف حدث ذلك، لطالما كان أخي عاقلاً فلما حدث ذلك؟ وما ذلك الشئ الذي غير طباع أخي وشغله إلى هذا الحد، هل كان هذا هو الترتيب المنطقي أو دورة الحياة، الولادة، الحياة، العمل، ثم الزواج أم أنه الحظ قد حالف ذلك المسكين ليحدث كل شئ في وقته، ربما أعطيت هذا الموضوع أكثر مما يستحق ولكن الأمر كان بمثابة السحر الواقع على أخي، عادة لم يأخذ أخي وقتاً في إتخاذ القرارات فلما ذلك، في النهاية أتعبني التفكير في الأمر فتركته فلا حاجة لي به وقد أشبعت فضولي وعرفت كل ما أريد عن أخي.

حتى ذلك اليوم الذي طلب فيه أخي مساعدتي، جاء حاملاً رايات الصلح معلناً إنتصاري مترجياً مني أن أذهب لأتعرف على الفتاة، وحينما رفضت أبدى لي بأن هذا الموضوع يؤرقه ويريد أن ينهيه، فإذا كانت مناسبة نتوكل علي الله وإذا لم فليعنني الله على ترك هذا الأمر، لكني رفضت فخرج من غرفتي ومن البيت وتأخر وكانت تلك أول أعمال أخي المتهورة.

عزيزتي سارة،

ربما تعرفين كل هذا ولكن ما أريد قوله، هو أن رفضي كان سببه الغيرة ولم أكن أعلم ذلك حينها بل كنت متيقنة منه، وعلى الأرجح علمتي أنتي الاخرى بذلك والدليل عليه عدم سؤالك حينها، انظري إلى تأثيرها عليه من الان فما بالك لو تزوجا، لم أعرف اسمها ولا عائلتها ولا حتى شكلها بالتفصيل ولكن حتى قبل أن أقابلها انا متأكده من أننا لن نكون على وفاق، ذلك اليوم فقدت أمي عقلها ونفذت من

أبي كلمات التهدءة، تقول أين ذهب الولد؟ ولما تأخر؟ ولما يغلق هاتفه؟ ويقول أبي أن هذة من شيم الشباب؟ فترد أمي بأن ابنها عاقل ولم يفعل مثل هذا من قبل، ولا يملك الحقيقة في هذا البيت غيري، كنا قرابة الفجر فطلب أبي من أمي النوم والكف عن النواح وغداً يعود بإذن الله، ذهبا لينام وفعلت انا كذلك ولكن أحد منا لم ينم، جلسنا صامتين في غرفنا، أمي يأكلها القلق، وانا الشعور بالذنب يقتلني، حتى عاد أخي بعد الفجر، فخلدت أمي للنوم وكذلك فعل أبي، أما عني فانتظرت حتي تأكدت من نوم الجميع، ثم ذهبت له لأخبره بموافقتي ولله الأمر ما كان هذا إلا شعوراً بالذنب ولكني فعلت على أية حال.

ترنم أخي يومين وندبت حظي ثلاثة، وفي الرابع اتفقنا على الذهاب للسوق وتم الإتفاق بيننا على هذا، أتعرف على الفتاة وأصلها وفصلها ولا أذكره في شئ، كما اتفقنا على عدم ذكر الموضع إلي مخلوق حتى إذا قرر أخي، أخبر من يخبر وترك من ترك، وهكذا كان، وقبل أن أكمل عزيزتي اعتذر على عدم إخبارك في وقتها فهكذا نصت بنود الإتفاق، على أي حال حين قابلت الفتاة تجمد لساني ولم استطع أن أفتح حديثاً، هل تصدقين ذلك؟ انا أعجز عن الكلام!

على أي حال لم نتحدث في أول مرة ذهبت بنية التحدث لها لذا عدت خالية اليدين، تذمر أخي من ذلك وأتهمني بنية تعطيل الأمر وكان هذا صحيحاً ربما أردت أن أعطل الأمر قليلاً حتى يأتي ما كان ينتظر ويسافر إلى عمله وينسى أمر الفتاة، ولكننا أعدنا الكرة وحينها لم أجد ما أتحدث عنه سوي "بوعزيزي" أتصدقين هذا؟ لم يخطر في بالي سوي ذلك الرجل الذي التهمت النيران جسده ومن بعدها أشعلت البلاد، وما الخطئ في ذلك الجميع في العالم كانوا يتكلمون عن ذلك فما بالك أهل حمص؟

والحق أنه كان موضوعاً جديراً بجعل كل من حولنا في السوق يتحدثون حتي البائع، فمن يقول قتلوه قتلهم الله، ومن لا يجد عذراً لما فعل من خطيئة ثم انتقلوا لتقييم الأوضاع السياسية في تونس وصار الجميع خبيراً إلا هي، لم تخرج كلمة واحدة، ولكن ما استفزها للحديث معي طريقة إختيار الليمون، نعم عزيزتي أتصدقين هذا، الليمون كان هو المفتاح فتقول خذي هذه ولا تأخذي تلك ومن هنا ولا أعرف كيف صرنا أصدقاء وتقبلتها كزوجة لأخي دون أن تعرف، وهكذا عزيزتي أقمنا العرس ودعونا الأقارب ورقصت أمي كما لم تفعل من قبل.

التاسع والعشرون من نوفمبر2017

المضحية دائماً وأبداً

عزيزتي سارة،

لطالما إعتادت جدتي أن تردد "وما بقى في الميدان غير حديدان"

كانت تلك العبارة لصيقة لسانها في الآوانة الأخيرة، بعد وفاة جدي أحتد بها شعور الوحدة والحزن وشعرنا بثقلها على هذة الأرض، لم نكن نشعر بسن جدتي لو حق القول، حينما كان جدي موجوداً لم نشعر أبداً بثقل سنهم على كواهلنا وكأن كل منهما يتعكز على الآخر ونبقى نحن خارج الصورة، لم تكن زياراتنا لهم كثيرة، بين حين وحين نطل عليهم، نجتمع كلنا، نطهو، نضحك، نتبادل أطراف الحديث، ولم نلحظ أبداً تلك الخطوط على جبهتيهما ولم نسمع بتلك الأمراض التي تعتريهما، ربما يقول لك أحدهم في حديث عارض أنه زار الطبيب مرة أو مرتين وكتب له هذا الدواء ولكنه الان على أفضل حال وربما ليثبت لك ذلك لوجدته هرع إلي أمر يصلحه أو عمل يقوم به، ولكن فقط بعد موت جدي أعتقد أن جدتي أطاحت بها الوحدة وكسرها السن، بدت مرتبكة كطفلة صغيرة لا تعرف ماذا تقول ولا ماذا تفعل ولا أين تذهب، في الأيام الأولى إعتدنا أن تقوم من مجلسها لعمل كوبين من الشاي ثم تلحظ أنه لا يوجد سوى فاه واحدة، وربما تتحدث لفترة ولكنها لا تحادث أياً منا حتى إذا لاحظنا وانتبهت للأمر وجهت رأسها نحونا، فنرد بكلمات مقتضبة تغطي على حسرتنا وحرجها، وربما تغير صوتها حينما تحدثت عنه ولكن لا أظنها بكته كثيراً، شيئان أقنعا جدتي بالقدوم للجلوس معانا في حمص، وحدتها وما حدث في درعا، أنتي تعرفين يا سارة أن بيت جدتي في درعا وحين حدث ما حدث وزار بيت جدتي ذلك الزائر وخرج ومعه جدي جلسنا عندها قرابة الشهر أنا وأمي أما عن أخي وأبي فقد عادا بعد إسبوع ولكننا بقينا وفي يوم وليلة حدث ما حدث.

سأخبرك شيئاً ربما هو نتاج للصدمة أو كانت خواطر عبثية أو طريقة لكسر الصمت حينها ولكني وجدت أن جدتي وأطفال درعا متشابهين، متشابهون في إحتياجهم للآخر فجدتي كانت تحتاج لأصوات الأطفال والحركة الملاحقة لهم في الشوارع كي تُذهب عنها حزنها أما أطفال درعا أينما كانوا فأعتقد أنهم كانوا بحاجة لصوت جدتي يطمأنهم وربما يقص عليهم بعض الحكايات، تشابهوا أيضاً في فجعة القدر وصدمة الحادث فكلاهما بين يوم وليلة تغيرت أحواله ولكن الفرق الذي أراه هو أن ما حدث لجدتي كان رحمة من السماء أما ما حدث لهم فلعنة في الأرض الفرق بينهم كان جلياً أنه الفرق بين العدل والظلم، أما عن جدتي فهي تعرف أنه يوماً ستداوي الأيام جرحها وتنسيها وستنظر يوماً لوجوهنا فتسعد بها وسيكون هذا اليوم قريب حالما تزول صدمة الفراق، أما عنهم فإن الإنتظار والتفكيرو مرور الأيام سيفتك بهم إن لم يفعل شئ آخر، فإنتظار المحتوم والخوف من الغد سيقتلهم ألف مرة، إن الفرق بينهم عزيزتي سارة كان في حتمية جدتي وإحتمالات أطفال درعا.

كان أبي قلقاً وكانت يلح علينا في العودة، الأوضاع غير مستقرة والله وحده يعلم ماذا يحدث غداً، وجدتي ترفض تقول اتركوني ومصيري، لم أكن وقتها لأفهم ولكنها للتو فقدت جدي ربما لم تكن تريد أن تفقد ما بقي منه وتترك المنزل، ولكنها علمت أننا لن نتركها وفي النهاية قررت الرحيل .

كان أخي قد رفض العمل بالخارج و وجد وظيفة هنا لذا كانت جدتي سعيدة، أعتقد وجودنا جميعاً بالبيت خفف عنها ولكن ليس كثيراً، بعد موت جدي أخذتُ ألاحظ كم هي كبيرة و وهنة جدتي، مشيتها البطيئة، طريقة جلوسها وحتى الطريقة التي تسمعك بها، وبين حين وحين تسخر من طول بقائها فتقول "ما بقى في الميدان غير حديدان"، في

يوم أعتقد أنه كان أول أيام الحصار كانت جدتي تجلس بسريرها منعزلة عن العالم فطلبت مني أمي أن أذهب لأطمئن عليها، حينما جلست بجوارها كانت تحدق أمامها في شئ لا أعلم ما هو وفكرت حينها أنها واحدة من حالات جدتي حين تنسي أين كانت وماذا تفعل ولكنها كانت واعية وشعرت بوجودى بجوارها فقالت كان هناك ثلاثة إخوة "قزيزان" و"حديدان" و "قشيشان"

كان الثلاثة ورغم أُخوتهم مختلفون، فبنى حديدان بيته من الحديد صلب وقوي ولكن لا ينفذ الضوء إليه ولا يشعرك بالراحة، أما قزيزان بنى بيته من الزجاج، يرى من خلاله السماء الرزقاء وحبات الأرز اللامعه وبالنهار يري السحب القطنية كما في الأحلام ولكن البيت يفضح أيضاً ما بداخله، أما عن قشيشان فبنى بيته من القش مريح ولكنه أوهن من بيت العنكبوت، وفي يوم جاء الثعلب الماكر وكان يبحث عن فريسته فوجد بيت قشيشان، حمل ضخرة وضربه بها فسقط البيت وأكل الثعلب قشيشان، وما إن سار خطوتين حتى وجد بيت قزيزان فحمل صخرة أخرى وضرب بها البيت، فتناثرت قطع الزجاج، وأكل الذئب قزيزان، وسار الذئب خطوتين فوجد بيت حديدان ولكن هذا المرة، صخور العالم أجمع لم تفلح بتحطيم بيت حديدان وهكذا عزيزتي لم يبقَ في الميدان غير حديدان، والسؤال هنا عزيزتي لما لم يعش الثلاثة في بيت واحد يبنيه حديدان ويزينه قزيزان بشرفات زجاجية ويتكلف قشيشان صنع الأسرة؟

نعم لم يبقى في الميدان سوى حديدان ولكنه لم يعرف قط بأن هناك ميدان، تلك الأبواب الحديدية منعته من رؤية العالم منعته من كلا الأمرين الموت والحياة، أقول انا إن قشيشان كان زاهداً كان يعلم أن الأمر في النهاية سيكون للموت لا محال فلم يُتعب نفسه وانتظره بدماء باردة وأقول أن قزيزان أراد الإستمتاع بالعالم قدر المستطاع،

أما عن حديدان فكان خائفاً، إن كان لك الأمر من أي شئ كنت ستبنين به بيتاً في الميدان؟

ربما لو قدر لجدتي رؤية الغيب لاكتشفت أنها ليست حديدان وأن ذلك الميدان لن يُبني فيه سوى خيام، خيام من قماش لا زجاج يعكس جمال العالم ولا قشاً يريح ولا حديد يحمي من بداخله وأن الذئب خارجه سيترقب لحفيدتها ولن يقترب منها أبداً.

استمر الحصار علينا ثلاث سنوات بقيت فيها جدتي تقاوم، ولم أكن أعلم أن بمثل عمرها قدرة علي ذلك، ظننا أنها ستكون أول الضحايا ولكن مقاومتها لم تجلب إلا الأمل بيننا، الوقت كان القاتل الوحيد بين كل ما يحدث، في الحصار حدثت أشياء مريعة ولكن أكثرها إخافة هو الوقت، فعندما تسمعين صوتاً يحلق في السماء، تخافين وقت وقوعه وعندما يمر دون حادث، تصلين لمرور الوقت دون وجود آخر، وهكذا تمر أيامك بين صلاة لمرور الوقت وصلاة لعدم مروره، النور في سماء الليل لم يعد يمثل المعجزات بل يمثل خراباً وفقداناً وخوف من نور آخر وحاجة إلى معجزة جديدة، كانت المدارس والمستشفيات أولى الأماكن بهذا النور، فهي قلب حياة المدينة وهي أولى بالقتل كي تسقط تلك المدينة، توقف الأطفال في السنة الأولى عن الذهاب إلى المدارس والكبار يتسللون إلى العمل والنساء في البيوت تدعو لعودة أخرى وبداية جديدة، في البداية ظننا أن الأمر سيستغرق شهراً ربما اثنين وحينما مرت أول سنة قلنا انتهي كل شئ وما ظننا أنه سيطول حولين آخريين، رحلتِ أنتِ عزيزتي بعد أول سنة وما أظنك تعرفين ما حل بنا بعدها، ولكنه لا يهم فلا حاجة لفتح تلك المواضيع الان.

على أية حال حينما كنا نسمع صوت الطائرات محلقة في السماء كنا نختبئ في قبو منزلنا وقد اعتاد بعض الجيران على القدوم إلى القبو، كرهتُ ذلك القبو وأحبته جدتي، كانت الحوائط الأربعة حصناً قاسياً

علينا ولنا لأنها لم تحل فقط دون دخول الموت بيننا بل منعت أيضاً دخول الحياة، ذلك القبو المظلم الملئ بهواء تلوث بالخوف كان يقتلنا ببطء بظلمته المغدقة ورائحته العفنة والخوف الذي نتنفسه مع الهواء، كان يحوي بين ثناياه كثير من الناس تستطيع أن تحس بثقل أنفاسهم ورجفة قلوبهم وكان جل ما يشغل جدتي هو الحكايات فكانت تجلس وفمها يثرثر بالحكايات حتى تجعلك تتسائل كيف لها أن تنسى ما دون الحكايات وتُبقي الحكايات وحدها ملمعة بارقة بتفاصيلها، أثارت إستغرابنا في البداية ولكن بعد ذلك اعتدنا عليه ثم أحببناه، ثم صرنا ننتظر حكاياتها، كانت جدتي بين ذلك الخراب بناء شامخاً وكان ضوءها يظلل على الظلام الخارج، حتى أنه اكسب من حولها شجاعة لاتعلم أسرها حكايات جدتي وأبطالها؟ أم صمودها في مجاعة لم يتحملها من هم أشد منها قوة؟ أم استمرار إيمانها القوي بأن كل ذلك ما هو إلا أوقات مظلمة ستمر؟

كانت تقوم في الصباح بكل نشاط تنظف القبو وتنقل فيه الأمتعة وتتأكد بأن الطعام والشراب متوفر وأن لكل جارٍ نصيبه منهم ثم تحضر الشمع وتوزعه على أركان القبو بحيث يُضاء كله، وتنتظر حلول طائرة فننزل وتنزل معانا ويأتي الجيران وتحكي هي عن الأبطال فتشغل من هم صغار وكبار، حتى شح الطعام في البلدة كلها وقطعت المياه عن الشوارع، كانت تنزل هي حاملة معاها ما يمكن ملؤه، وتنتظر سيارة محملة بالمياه فتقف في الطابور وتملئ الأواني وتعود محملة بالخير والزاد كفتاة عشرينية، وبعد ذلك حدث ما عجزنا عن تفسيره عندما لم نستطع إيجاد دواء لها، في البداية كان أبي يوصي صديقاً وصديقاً يوصي صديقاً حتى يأتينا الدواء متأخر ولكنه أتى، ولكن جدتي لم تعبأ بتأخر الدواء وكأنها أمرت بأن يمسك جسدها بزمام الأمور وأن تتشبث تلك الروح بذلك الجسد، بعد فترة لم يستطع

أبي الحصول عليه ولكنها أيضاً لم تبالي، كنا نظن أنها لن تصمد كثيراً وكنا نخلص الدعوى لها، ولكن لعجبنا صمدت أسبوعاً واثنين وشهراً واثنين، وبعدها اكتشت أمي أنها توقفت عن أخذ الدواء منذ بدء الحصار وأنها كانت تبيعه وتجلب طعاماً لنا في خفاء، حينها تشاجرت أمي معها كيف لها أن تضر صحتها بهذا الشكل وأن قلب أمي لن يتحمل مزيداً من الخسارة، وجدتي تقول لها بأن صحتها بأحسن حال وأنها لم تشعر بمثل تلك القوة من قبل.

رغم أن عدد الجيران قل بنسبة كبيرة، فقد سافر من سافر وقُتل من قُتل، إلا أن جدتي على العهد القديم، في كل صباح تنظف القبو وتعده وتحكي الحكايات حين نجتمع، حتى صارت حكاياتها تتكرر يوماً بعد يوم، وعقلها ضعف وتاه بين فصول الحكاية فكنا نمثل الإستماع وفي عقولنا ما يقلقنا حول صحتها.

توفت جدتي في نهاية الحول الثاني، استيقظت كعادتها تنظف القبو وتحضر المياه ولكنها لم تخرج منه مرة أخرى، أخذ دفنها وقتاً طويلاً فكيف تحفرين قبراً بين صواريخ تهدد بأن تُدفني أنتي فيه بدلاً من المتوفى، وكأن طيفها رحل بعد رحيلها فقرر أبي أنه لا هي أيام مظلمة ولا هناك أمل وأننا سنرحل قريباً.

عزيزتي سارة،

تعلمين أن سبب كتابتي لك، هو استيقاظي في الليل فارغة ولكن ها انا الان أكتب لك في وضح النهار تحت ضوء الشمس، فهل تعرفين أنتي

السبب؟ لا أعلم ولكن ربما هو لأن حديدان لا يطيق الجلوس وحيداً في الميدان.

الثامن من ديسمبر 2017

حديدان

عزيزتي سارة،

راودني اليوم حلماً آخر مزعج ولكن هذة المرة لم أحكي لكِ عنه وشغلت نفسي بأشياء عدة ولكني أخشي أنه يأبى إلا أن أذكره في حديثنا فلقد تكرر عدة مرات في غفواتي وقيلولاتي وحتى في نومي العميق ليلاً فصرت أخشى إغلاق عيني مخافة رؤيته، لذا أعلنت الإستسلام هذه المرة فلا يقدر المرء على المقاومة نائماً ومستيقظاً، لابد من وجود تلك المنطقة التي يخلع عندها زي المحاربين ويرتدي عباءة الحياة، لذا عزيزتي أرجو أن يذهب هذا الشئ بعيداً مصاحباً هذا الخطاب.

لا أعلم أكانت هذة ذاكرتي تعيد تلوين مكان مرت به أم أن عقلي يرسمه علي أساس لا أعلمه، على أي حال كان مكاناً غريباً لا أتذكر تفاصيله بدقة ولكن حقاً أتذكر ما جعلني أشعر به، قد كنت وحدي في صحراء تنير شمسها الرمال فتظهر لامعة دافئة وكان يقبع أمامي مبنى حجرياً مقسم إلى مربعات صغيرة على كل منها منحوت وجهاً حجرياً، رأيت الكثير من الأوجه على تلك المباني، ولا أتعرف على أحدٍ منها، حتى أرى وجهاً يبدو مألوفاً ولكني لازلت لا أتعرف عليه، فأستيقظ فزعة ربما غير مطمئنة ولكن الأكيد أنني حين أستيقظ من ذلك الحلم أشعر أنني خذلت أحداً، ربما هو ذلك الوجه الباسم الحجري، صرت في بداية الأمر أرغب في أن يُعاد الحلم لكي أتعرف على ذلك الوجه وأتخلص من ذلك الشعور ولكنه في كل مرة يصبح غريباً عني أكثر، حتى أني كرهت كل مبنى أراه في الشارع وامتنعت عن النظر في وجوه من أعرفهم ومن لا أعرفهم ولكن ذلك الحلم عنيد يزورني في كل مرة ويُشعرني بأسوء من ذي قبل، وفي يوم عزيزتي عندما كنت أقرأ كتاباً لأحد أصدقائي _وهذا أمر سأحدثك فيه لاحقاً_

طلب مني قرأة كتاب عن الحضارة التدمرية، لا أعلم لماذا، ولا أعلم لماذا رفضت في بادئ الأمر وصرت أتعلل بالمرض والإنشغال بالعمل وبأحوال الحياة ولكن حاله كحال حلمي عنيد، فما كان مني إلا أن فعلت، أتذكر وقت بدأت في قرأة الكتاب كيف كانت نبرتي سريعة لا تسمح لعقلي بتحليل ما يقال ولم أكن أريده أن يفعل، وكان صاحبنا يدرك ذلك فلم يطلب مني إعادة قرأة جزء فاته أو تدوين حتى إحدى الملاحظات، قضيت ربما ساعة في ذلك، وفي إحدى صور الكتاب وجدت صورة ذلك المبني مكتوب عليه "مقابر تدمر القديمة" حينها تهدج صوتي ثم توقف ربما لخمس دقائق فطلبت منه أن نكمل ذلك غداً أو بعد غد ورحلت، وفي ذلك اليوم حينما راودني ذلك الحلم كان ألطف وأخف وحينها تعرفت على ذلك الوجه.

أترين عزيزتي إحتمال سقوط الأمطار في يوم حار جاف من أيام أغسطس الحارة، كان هو إحتمال عودة عمي إلينا، وأن يرى أبي وجهه مرة أخرى كانت خيالات تراوضه، بين الحين والحين كان يحكي لي أبي عنه وعن طفولتهما سوياً ثم يصمت قليلاً وتراه يشيح بنظره إلى أبعد الحدود، ولا أعلم أكان يهرب من نظراتي المتسائلة أم أنه يبحث عن شئ هناك، شئ رغم كل تلك السنوات إلا أنه على يقين أن في مرة مباركة مختلفة عن باقي محاولاته عندما يشيح بنظره إلى العدم سيرى وجهاً اختلط فيه حقيقته وتخيلاته فلم تعد تعرف كيف تفرق بينهما ويستحيل هذا الوجيه الأكيد ذو المصير الأكيد إلى وجه مشوش ومصير أكثر تشويشاً، ولكن في نظر أبي كان لابد من يوم يلوح في الأفق ومن وراء المستحيل ذلك الوجه، ليس قوة من أبي ولا جلداً ولكن لأن أبي لم يملك وقتها سوى الأمل أو إدعاء الأمل ولكن على أية حال كان أمل أبي الزائف حقيقياً وحقيقتنا الأكيدة زيفاً فعاد عمي ذات يوم، مما جعلني أفكر ربما صيفاً ما ستهطل الأمطار علينا.

نحيلاً، أبيض الشعر، يتخلل ذلك البياض بضع شعيرات سود و وجهه رسم الزمن عليه علامات تصعب إزالتها، بعرجة في قدمه وإنحناء في ظهره، كل تلك الصفات كانت خصيمة عمي كما يقول أبي ولكن لسخرية القدر عندما عاد كانت تلك الصفات لصيقته، وبيدٍ مرتعشة طرق بابنا بهدوء، هدوء لا يتناسب مع تلك الضوضاء في عقله وذلك الفيضان الذى رغم شدته إلا أن قلبه أحاط به، طرقة لم يسمعها أحد في البيت وأما هو فلم يكررها، وكأنه خجل بعد تلك السنوات أن يظهر وكأن شيئاً لم يكن، انتظر أمام الباب وكأنه ينتظر معجزة ويتمنى ألا يكون أخاه قد انتقل وأنه بعد كل تلك السنوات لا يجد موضع يأوي إليه، حينما فتحت الباب والحقيقة أنني لا أتذكر وجهتي حينها ولكن رؤيته يجلس بجوار البيت أثار شيئا في داخلي، ربما حقاً هي صلة الدم وربما هو خوفي من غريب يجلس قرابة منزلنا لا أعرف ولكن فور رؤيتي إنتصب واقفاً وكأنه كاد يمسك بأمل ولكنه ما لبس أن انتطفأت عيناه وتراجع بضع خطوات للخلف وهم أن يرحل، سيقول لي عمي لاحقاً أنه لم يكن يعلم أن أخاه قد رزق بفتاة وأن عمري من عمر معاناته وأن حياتي قضيتها على هذة الأرض توازت مع حياته بعيداً عن هذه الأرض، حينها تأرجحت الأرض بين قدميه وأنطفأ الأمل ولكن ذلك لم يمنعه عن السؤال عن أخيه وأين ارتحل؟

وهنا التقى عالمينا فأخبرته بأن أبي لم يرحل ومازال يسكن هذا البيت ولكنه في العمل ويمكنه إنتظاره، في البداية تلعثم ولم يعرف بماذا يبدأ؟ بكونه عمي الغائب منذ ستة عشر عاماً أم بأنه فرح لرؤيتي بعد كل تلك السنوات وعلي أي حال فقد اكتفي بطلب رؤية أخي، وعندما رأيت الإصرار في عينيه فعلت، وتعرف أخي عليه بالفعل فإستغرق عناقهما ربما عشر دقائق أو أكثر وأنا مازلت لا أعرف ولا أفهم، وحينما عرفت وفهمت لم يتعدى سلامنا سلاماً بالأيدي، سلاماً متردداً

متوتراً تسرع يده في الإنفلات ما بين يدى قبل أن أشعر بالجروح فيها أو إنزعج من إحاطتها بيدي، عجيب أن أتذكر كل هذا ولكن لأول لقاء هيبة وهذا اللقاء على سرعته علمني أن عمي كان يشعر بالخجل، ربما لذقنه غير المرتبة أو لشعره الذي يبدو غير مهندم رغم قصره أو ربما لملابسه غير المرتبة أو لإنحاء ظهره والتجاعيد في وجهه أو ربما وربما، ولكن الحقيقة أن عمي كان خجلاً من شئ آخر، كان يخجل من الحياة.

عزيزتي سارة،

وحدتي هنا تؤهلني لكتابة مغلفات تضم كثيراً من التفاصيل، لذا حقاً أرجوا ألا تملي أن تسمعي حكايتي مرة أخرى، ولكن هذه المرة لن أخبرك بالأحداث لأنك تعرفينها حق المعرفة أو ربما لأنها واضحة ولكن عزيزتي سأخبرك بشئ آخر، جانب ربما أحببته في نفسي دون أن تعرفيه، عزيزتي لا أكتب هذا لأُريكي جانبي المخفي ولكن لأريه نفسي، لأن بعد كل ما حدث لا أريد أن أنسي تلك الحياة، أريدها أن تكون حتى وإن كان ذلك الكيان يرهقني ويطلق علي ذكريات وقصص ربما لا أتحمل عيشها مرتين، ولكن جرحها هو أهون علي من التخلي عنها وإستعارة حياة أخرى لا تشبهني، ربما تكون تلك الذكريات قيوداً تكبلني عن المضي قدماً، ربما ستجعلني أكره حياة أخرى قُدرت لي، ولكن لا مفر.

عزيزتي سارة،

آفة عمي التفكير، لم يعترف بهذا أبداً ولن يفعل وربما لو كنت واجهته بذلك لظل طوال الليل عاكفاً يفكر في الأمر ثم سيتقيظ لاحقاً يفكر في أنه قضى وقتاً كثيراً في التفكيرفي هذا الأمر وأنني محقة ثم يلوم نفسه علي ذلك، شخصية غريبة ولكن بالفعل كذلك.

حدثني عمي مرة بعد أن اتصلت أواصرنا أنه كل ما كان يدور في عقله حين خرج هو "الوقت" كم هو قادر على المرور سريعاً هيناً في مكان، وبطيئاً قاتلاً في مكان آخر، عندما نظر عمي في المرآة لأول مرة بعد خروجه أحس كيف كان مرور الوقت عليه وحينما عاد إلى البلدة، ربما أخذته دوامة الزمن وربما هذا أكثر ما عذبه، فقدانه للوقت، فقد خرج من هذا المكان شاباً وكل من يعرفه كان كذلك، حتي البيوت والشوارع والأنوار والظلال كل ذلك بدا لعمي، لا أعرف، ربما أثقل وأقدم بمائة عام، حينما يرى شاباً قوياً يتوسم فيه الألفة ويذهب لإلقاء التحية وفي اللحظات الأخيرة يدرك أنه ليس الوقت المناسب وأنا أعنيها، فربما كان ذلك الشاب الذي يظن أنه يعرفه ليس هو بل هو ابنه أو حتي حفيد له.

وكأن عمي كان يُلقى به بمكان لا يعرفه ولكن الوضع الأغرب أنه كان يعرفه حق المعرفة فجعله الزمن غريباً في بيته، إن تشابهنا أنا وعمي في شئ فربما في غربة لم نختارها ومعاناة فُرضت علينا ولا أعرف غربة من كانت أقسى.

في البداية كان التوتر بين عمي وأبي ملحوظاً ولكن أحداً منا لم يعرف سببه، ربما هو خوف أبي على عمي ورغبة عمي أخيراً في الحرية والتنفس دون مراقبة أنفاسه، ولكن عمي نجح أن يشعر بالحياة من جديد و أن يعتاد مرور زمانٍ لم يلحظ مروره من قبل، فنزع ماضيه وتجاهل تلك الخطوط على وجهه وعرجة قدمه وتصرف وكأنه جالس بيننا منذ سنوات، كم تمنيت أن أمتلك تلك القدرة انا الأخرى فأخطو دون أن تدوس قدمي تلك البركة القابعة تحتها وتخرج دون أن تُلوث بالماضي، بعد مرور أول شهر من عودة عمي، إنكسر صمت عمي وبدأ يتكلم أو بالأحرى يسأل فصار يسأل عن حياة كل شخص منا

كيف أمضاها وماذا حدث وقتها وماذا حدث هنا، وكأنه يعيد نسج تلك الخيوط لربما يستطيع أن يُخفي تلك الفجوة.

ولكنه أبداً لم يجب على أسئلتنا، ربما لا يريد حتى أن يتذكر إجابتها، فقد مرت مرة فما الداعي من مرورها مرتين، سألني ذات يوم ماذا أريد أن أصبح، كان ذلك أول مرة تحدثنا سوياً ربما بدا السؤال سخيفاً لي وقتها ولكن بعد النظر في الأمر فقد كانت أفضل طريقة لفتح حوارٍ بيننا وبعدها لم يتوقف الحديث بيننا، كان أكثر حديثه موجه لي، حتى عمي كان يتجنب حديث أبي لأنه كما كان يقول عمي للكلمات إيقاع مختلف فاسم يذكره عمي هل سيكون له نفس الوقع، نفس إرتجافة القلب ونفس تهدج الصوت، هل يكون له نفس الصدي المرعب ونفس الذكريات المؤلمة، ربما لأبي كان كل مايسمعه هو عمي يحكي عن معناته ولكن بالنسبة لعمي فهي معانة مرة آخرى، كان أبي يسمع عن سجن في صحراء ولكن عمي كان يسمع أنين من فيه مرة آخرى، ربما سيسمع أبي اسماً عادياً ولكن عمي سيشعر بسوط ذلك الاسم على ظهره أو سيلاً كهربياً يمر في جسده، ولكن أبي يريد أن يفهم وعمي يقول أنه لا يوجد شئ للفهم فهو سوء حظ لا أكثر، بعض رسائل يمررها أثناء سفره، صديق طلب منه فعل ذلك، ففعل، قُبض عليه ولا يفهم لماذا؟ سيل من الأسماء يُمرر عليه وهو لا يعرف شيئاً، يحمل من سجن لآخر ومن مكان للآخر وهو لايعرف شئ، مر على ذلك ستة عشر عاماً وعمي لا يعرف ولا يفهم ولا حول ولا قوة له.

يقول عمي أن أول صلاة له كان بعد أن خرج من السجن، رغم تساؤلات كل من حوله ورغبتهم في إلتهامه بالأسئلة ورغم حسرته على ما ضاع ورغم صوت في عقله يمثل له الأمور لوكان فقط رفض إيصال الرسائل وكيف كانت لحياته أن تكون، محى كل ذلك شعاع واحد من ضوء الشمس، قضى على كل تلك السنوات المظلمة

وأعاد معاني الشكر والعرفان، وأذهب كل الضر وأعاد تلك الصلة المقطوعة.

ما كرهه أبي في عودة عمي هو عمي نفسه، كان أبي يقول أن عمي قبل أن تنزل به النازلة كان طموحاً أو قل حالماً وكان شجاعاً حد التهور و واثقاً بنفسه حد الغرور و متفائلاً حد الغباء، أعتاد أبي أن يقول له فيما مضى أنه يعيش في عالم آخر، عالم وردي لا تتدخل فيه الأقدار ولا يحكمه الظلم عالم لا يشبه عالمنا في شئ، كان أبي يحكي لي عن جلساته الليلية مع عمي في الشرفة، تحت نجوم السماء، شابان يجلسان يحكي أحدهما عن سيارة جديدة و وظيفة مرموقة واسم تلمع عيون الناس حين يُذكر وآخر يفكر فيما سيحدث غداً وأسوأ سيناريو قد يحدث وفي النهاية لا تتحقق رواية أحدهما، كان أبي يقول لي أنه كره تلك النسخة الخيالية من عمي ولكنه كره أكثر إختفائها بعد ما حدث، ما حدث قلب الطاولة رأساً على عقب فكان أبي يزين الحياة ويزرع الآمال وعمي يضحك بأسى على ما فاته، نشبت بينهم عدة شجارات لا أنكر، وكان أبي في كل شجار يحاول إسترجاع أخاه ومحى ما تركه الزمن وأخوه أغلق على قلبه ولا يريد أن يسمح لأحد بالدخول إلى تلك الحجرة المظلمة التي لا يعرف ما بها سواه، وكان يأبى أن يقوم بأي شئ يوصله بما كان وكأنه بذلك يخبر الجميع أنه ارتضى، وكأنه يستجدي القدر ليجبر بخاطره المكسور، أتذكر في مرة أحتد بينهم الخلاف فترك عمي البيت وظل أبي مستيقظاً يومين وإذا جلس مع أمي وحده لعن نفسه وما فعل ولم يهدء إلى أن عاد عمي.

عندما بدأ الحصار على حمص كان عمي مضطرباً أكثر من أي وقت مضى، شعر أبي أنه كان يريد المغادرة والهروب ليس جبناً ولكنه كان خائفاً علينا وما قد يجلبه وجوده بيننا، وعن أبي فلا يريد أن يفقده

مجدداً حتى أن أبي صار يقلق في الليل فيذهب إلى غرفة عمي ليطمئن أنه لن يرحل، وأكثر من سعد بوجود عمي هو جدتي فكان هو شريكها في ترتيباتها للقبو يُطري عليها بعض كلمات المدح وربما حتى الغزل فتضحك جدتي كفتاة عشرينية ثم تتبعها بدعوة خالصة له، كانت جدتي حينما تنتهي من قصة يستزيد هو منها بقصة بينما يكون الجميع منشغل بالتفكير في مسقط طائرة أو مسقط قذيفة، وكأنه لا يكترث لما يحدث وكأنه يقول لجدتي أننا نستمع، في يوم كنا في القبو وكان لا ينيره سوى فتحتان صغيرتنان، لطول جلوسنا فقد ذابت شموعنا، وفجأة سمعنا صوتاً مدوياً ونور يهرب من الفتحتين فعلمنا أن تلك المرة كانت قريبة جداً، عندما رأى عمي عيناي تدمعان بدأ ولأول مرة يتحدث، قال "عندما أخرجونا من الحبس الأنفرادي، وجمعونا في مكان واحد كادت قلوبنا تطير فقد كادت الوحدة ليلاً تفتك بنا قبل أي شئ، ولكن تلك الفرحة لم تدم طويلاً فلقد علمنا حين رأينا الغرفة المعهودة لنا أننا على وشك عذاب أكبر فقد كانت غرفة صغيرة لحمل خمسين فرد فكنا ننام وناكل ونقضي يومنا واقفين و أمرنا بعدم الكلام أو حتي النظر، فصار بعدها حديثنا همساً نهرب به بعض كلمات ضرورية والباقي يُقال بالعيون، كان معنا خليط من الناس من كل المحافظات وكل الأعمار وكل الخلفيات ولم يزعجنا ذلك على الإطلاق عكس ما ظنوا، بل استمتعنا بالحكايات التي حملها من آتي إلينا، كان هناك رجلاً في متنصف العمر يسمى خالد كان ذلك الرجل أطولنا بقاء في السجن، فقد حُبس منذ كان شاباً في مثل عمري حينها، وكان قد شارف على الهلاك من ويل ما لقاه، وحينما اشتدت به العلة أخذوه بمشفى خارجاً وأثناء بقاءه هناك سمحوا له بزيارة عائلته ولم يكن حينها سوى زوجته وابنته التي لم يرها في حياته، حينها صعقنا عندما عاد، فقد عاد لنا شخصاً أخراً أقوى وأصبر على البلاء، لا أعلم ماذا قال لعائلته أو ماذا قالوا له ولا أعرف إن دمعت

عيناه لرؤية ابنته أو ابتسم حتى آلمه فكه ولكن الذي أعرفه أن ذلك أنزل به قوة لم نكن نعمل أنها قد تُعطي لبشر قط وكأن كل تلك السنوات من التهويل والتعذيب لم تكن، وكأنه للحظة وعى أن هناك من ينتظره خارج تلك القطبان، ربما يطول الحصار ولكن له نهاية ربما يُقذف هذا المبني أو ذلك ولكن الحياة في هذة المدينة باقية نحتاج فقط أن نتذكر ما ينتظرنا خارج هذا الحصار"

ثم صمت عمي ولم يتكلم مرة آخرى، لا في تلك الليلة ولا التي تليها، لأنه حينها أخبرنا أخي أنه يريد أن يقاتل مع المقاتلين، نشب شجار عنيف بين عمي وأبي، يتهم أبي فيه عمي بزرع تلك الأفكار في عقل الصبي وقد أصر عمي على أنه صبي ولا شئ غير ذلك، إنفجر أبي وتكلم كما لم يتكلم من قبل، انتظر عمي حلول الليل ورحل، لا أعرف إلى الان أين ذهب، بعدها لم يتصل ولم يكتب رسالة وكثرة القذائف تؤكد لنا أنه في عداد الموتي، قال أبي أن عمي أناني يعشق أن يدور كل شئ حوله ويُبقي من معه في شغل، ولكن مع ذلك انتظره أبي يوماً بعد يوم وذات يوم قرر أبي أننا راحلون.

تُري ماذا كان أصعب علي أبي، رحيل عمي بداية أم رحيله أخراً؟

وهل ظل الذنب يرافق أبي أم أن أبي إعتاد على عدم وجوده؟

العجيب أنني لم أتسائل أين ذهب عمي حينها؟ ولم أتسائل إن كان حتى حي يرزق؟

حينها كنت أتخيل أرضاً خضراء بلا قذائف ولا صواريخ والغبار لا يغطيها، فيها أطفال كثر يلعبون ومدارس لم تهدم بعد ومشافي خالية وفي زاوية خالية من البيوت رجلاً وزوجته يجلسان مع ابنتهما ومن بيعد يقف أعرج مشيب الشعر يشاهدهما.

عزيزتي سارة،

ربما يكون الأمر مثيراً للشفقة ولكن ها أنا ذا بعد تلك السنوات في بلاد بعيدة، أتمنى أن أقابل ذلك الأعرج، أتمني أن تكون الحياة قد رأفت بحاله وأتمني أن تأتي سخرية القدر في صفي ولو لمرة.

الواحد والثلاثون من ديسمبر 2017

(تماماً عند نهاية العام وبداية

الآخر، أخذت وقتاً لأختار

أي التاريخين اكتب)

صديقتك الواقفة تماماً في منتصف

كل شئ

عزيزتي سارة،

هل تعلمين من قابلتُ في هذة البلدة؟

قابلت يمنى، تلك الصهباء من المدرسة هل تذكرينها؟

أتذكر يوم كنا عند التل، أتذكره جيداً كنا يوم الخميس بعد الدوام وقد جلسنا هناك لنشاهد الغروب، رغم أن المطر كان قد بلل تربة التل في اليوم السابق إلا أننا وجدناه جافاً مريحاً وكأنه كان بانتظارنا ذلك اليوم، فجلسنا، لم نحضر طعماً ولا شراباً ورغم أنكِ لا تستطعين الصمود دقيقتين دون التذمر إلا أنكِ في ذلك اليوم جلستي صامته واهنة لا حول لكِ ولا قوة، كانت السماء صافية على غرارة أيام الشتاء وكانت الشمس تتوسط الأفق وتنحدر بهدوء كما لو كانت تسكب في نفوسنا نوراً هادئاً، ورغم كل الأحاديث التي كنا نتحدث فيها عادة إلا أننا لم نتحدث سوى عن الصهباء الجديدة في المدرسة قلتي لي "هل تعلمين أن لدى عائلتها حقل برتقال كبير في نهاية البلدة" فقلت "هذا يفسر لونها" وصمتنا.

أتذكر توبيخ أمي لي ذلك المساء حتى أنها لم تكلمني يومين، كيف أتأخر كل هذا خارج البيت وكيف لا أخبرها أين مكاني ولكن الذي عنته أمي حقاً بهذا الكلام، أنه ليس لي أي حق بجعل قلبها مضطرباً كعصفور هائج في قفص ولم يكن مقاطعتها لي إلا بتأكيد على أنني أفهم ذلك، ولكني في تلك الأيام وجهت كرهي ليس لخصام أمي ولا للتلة المبتلة ولا حتى لكِ عزيزتي ولكني بشكل أو بآخر وجهته للصهباء الجديدة وذِكرها، غريب أليس كذلك؟

أعلم ولكن هي الحياة عزيزتي، ليس ذلك بأغرب مما حدث بعدها وما سيحدث في المستقبل القريب، من كان يعلم أنني الان من مكاني هذا ملايين الأميال بعيدة عن التلة وعن حقول البرتقال سأجدك مرة آخرى وأجلس في زاوية المنزل أكتب خطاباً لك.

أتعلمين،

أشتاق لما هو لي، أشتاق لما يخص الوطن، أشعر يوم خرجنا أنني حملت قلبي بين يدي وحتي ذلك الحين يا سارة لم أجد مكاناً لوضعه ولقد تعبت من حمله، حينما جئت هنا صرت أنظر للأشياء وأتذكر كيف كانت في الوطن فهؤلاء الناس كنا لنسميهم غرباء في الوطن وهذة اللغة كنا نسميها أجنبية في الوطن، وهذه الشجرة لكانت تبدو أطول لو زرعت في الوطن، وهذا البرتقال كان ألذ في الوطن، وأمي كانت في الوطن، وعائلتي ذهبت مع الوطن، حتي أنا تركت نسختي الأفضل حين تركت الوطن.

عزيزتي،

إنني أشيخ وحدي، بعيدة عن كل شئ ، فكنت أتمسك بما يبقيني صغيرة لما يحبس الوقت، كنت أحتاج لبرهة لإلتقاط أنفاسي ولكني لم أحصل عليها لذا صرت مهوسة بما يذكرني، أنام كل ليلة على وجه لأمي الذي لا يوجد سوى في رأسي، وأرى في منامي حقلنا ومدرستي وبيتي القديم و وجوه إعتدت على رؤيتها، لا أعرف لمن هي ولا أعرف القصص وراءها ولكن وجودها في الجوار يريحني، وتلتقط أنفي رائحة البحر وأسمع صوت أبي ينادني وابن أخي الصغير يبكي ولكن بلطف، ثم ينزعني صوت المنبه من النوم وأستيقظ لأجد فطور أمي ، ثم أرتدي ثيابي وأتخيل ما قد تقولينه حينما أراكِ، ثم أخرج من البيت بعد أن أرفض توصيلة أبي بحجة

أننا، أنا وأنتِ سنمشي سوياً وأخرج مبتسمة أشعر بالدفء ولكنه هذة المرة بداخلي، ممتلئة بملايين الكلمات التي أريد قولها لكِ وملايين الحكايات التي حدثت في الفترة الماضية وملايين النكات التي حفظتها لأخبركِ بها، وحينما أخرج وأجد مكاناً لا أعرفه أُصدم لفترة وبعدها تعود الذاكرة كلمح البصر وأعلم أننا لن نمشي سوياً اليوم ولا الغد وقد لا نفعل أبداً، وأعلم أن توصيلة أبي شئ من سراب، وأن فطور أمي ما كان سوي شئ أعددته أنا، أمشي ساخطة على الأيام وعلى نفسي وعليكِ وعلى أبي وأمي، ثم أصل لعملي وأعمل ولا أدري كيف يمر اليوم، وذلك اليوم لم أكن أعرف ما هو اليوم ولا موقعة من الأسبوع ولا الشهر، ولكني عندما رأيت يمنى في ذلك اليوم تلك الصهباء، عرفت من الذي لا أسخط عليه.

كنت لأختصر تفاصيل لقائنا ولكن يبدو أن النوم فارقني لذا سأقص عليكِ ما كان، كنت أجمع طلبات الزبائن وبالصدفة، محض الصدفة، ذهبت لطاولة في أخر المطعم، دفتري في يدي وفي اليد الآخرى قلم وبدون حتى أن أنظر بدأت في الكتابة، كان صوت ذكورياً خشناً يبدو رجلاً كبيراً في السن ذا لكنة ضعيفة ولكن على أي حال بدأت أكتب ولكن أوقفني صوت نسائي، بدا لي مألوفاً، ولكني لم أتحدث معها أبداً لألف صوتها، ربما كانت هي طريقتها في نطق اسمي، نظرت لأجد أخويها و والديها وهي.

مقابلتي لها في ذلك اليوم كان كإلتقاء عالمي قبل أن أترك الوطن وعالمي بعد أن تركته، هي وعائلتها المتطلعة إلي بعيون مشفقة متسائلة كانوا يمثلون عالمي قبل الرحيل وأنا كنت عالمي بعد الرحيل، كإلتقاء المادة والمادة المضادة لا ينبغي أن يحدث لأنه ينتج عنه طاقة كبيرة قد تؤدي للهلاك.

رميت سلاماً سريعاً ورجعت مكاني كعداء يحاول الفوز بسباق، هل شعرت بالحرج؟ مما شعرت بالحرج؟ هل شعرت بالحنين؟

هل شعروا هم بالشفقة؟

لا أستطيع أن أجزم .

لاحقاً سأعلم أنها سافرت مع والديها قبل حدوث أي شئ في البلاد وأنها استقرت هنا منذ زمن، وأنها ترتاد كلية الفنون هنا.

طلبت من أحد زملائي الإهتمام بهم، وهم تناولوا طعامهم ورحلوا، لم أكن أعرف حينها أن يمنى انتظرتني خارج المطعم، كان الجو سيئاً والرياح شديدة حتي أننا أغلقنا باكراً في هذا اليوم ولكنها انتظرت على أي حال.

حينما خرجت و وجدتها أمامي، بكيت، لا أعلم لماذا؟ ولكني شعرت أنني حُصرت تماماً.

يومها جلسنا سوياً، سألتني كيف حالي؟ فأجبت بخير.

ساد الصمت لفترة ثم سألتها هل حقاً يمتلك والدك حقول برتقال؟ فأجابت لا ثم ضحكنا ثم ساد الصمت مرة آخرى وجلسنا بين الثلوج لا نرى أشعة الشمس لشدة الغيوم ولكننا جلسنا

الخامس من يناير2018

صديقتك الساخطة

عزيزتي،

ترى ما الجانب الجيد فيما مررنا به؟

اليوم قد زارتني يُمنى، تفجأت بحضورها ولكني لم أعمل حتى على ترتيب شئ في المنزل لذا دعوتها للدخول وذهبت لأرى الصبي، لم يكن في البيت شيئاً مرتباً لا الأوراق ولا الكتب ولا الملابس ولا حتى أنا، ولكنها دخلت على أية حال، عندما عدتُ طلبت مني أن أرتدي ملابسي وأجهز الصبي لنخرج، لم أكن أيضاً أريد الخروج ولكن بكاء الصبي المتواصل جعلني أفعل، فتجهزنا وخرجنا، وعدا كتاباتي لم أكن أعلم أن بإمكان إنسان قول كل هذا الكلام دفعة واحدة ولكن يُمنى فعلت، ظلت تتحدث لا أعلم إلى متى ولكنه بدا لي حديثاً طويلاً مملاً ليس ككتاباتي لكِ، ربما، لا أعرف.

ولكن بدا حديثها جامداً خالياً من الروح أو الذكريات، ملئ بالأرقام وتتخله لغة غريبة تتسم بتفاؤل غبي ولكنها بدت سعيدة وهي تتحدث مما جعلني أتسائل منذ متى كنت ك"يُمنى"؟ منذ متى شعرت أن تلك الحياة تستحق الحديث عنها بمثل تلك السعادة ومنذ متى تحدثت بتلك النبرة المتفائلة الغبية؟ على أية حال فقد نشب بيننا شجار أو قولي شبه شجار أو أنني تخيلت أني تشاجرت معاها أو أني أردت حقاً فعل ذلك، عندما لاحظت شرودي علقت على رسائلي غير المعنونة، ذهلت من معرفتها بالأمر فقالت أنها وجدت واحدة بين الورق في البيت، قالت أن ما حدث قد حدث وأنه يجب أن أرى الجزء الجيد في الأمر وأن أتحامل وأن وأن، تركتها وأخذت الصبي للبيت ولكن في مخيلتي قد صفعتها عدة مرات، لا أعلم مَن بيننا بدت غبية أكثر أهي أنا واقعة في حفرة أم هي تطلب مني إتباع النور إلي الأعلى، هي لا تعرف

الأمر، لم تكن هناك من الأصل، ربما مشاهدة التلفاز تؤلمها يوم أو يومين ولكن ليس للأبد، عزيزتي سارة أتمني أن تفهم يوماً ما.

الثامن من يناير 2018

الباحثة عن كوبٍ ممتلئ.

عزيزتي سارة،

في كل يوم تحملني قدماي إلى العمل لا أستطيع إلا أن أفكر في إختلاف ملامح الحياة بين هذا البلد الذي أنا فيه والبلد الذي جئت منه، فهنا للوهلة الأولى تعجب بالناس على إختلاف ثيابهم وملامحهم، من له ثياب مهندمة متناسقة ومن له ألوان تطالب بالنظر إليه، وتنظر في إختلاف ملامحهم فتأخذك الحيرة من الإختلاف الشديد بينها، تراهم يمشون وكأن الحياة تلاحقهم، يحملون هواتفهم وتتحرك أرجلهم بسرعة لا تناسب عقولهم المحجوزة في هواتفهم، قلما تجد مجموعة تسير متحدثة إلى بعضها وقلما تجد من يضحك في الطريق، الإعلانات تزين المباني والأضواء في كل مكان وضوضاء المدينة تعلو على كل شئ، أما في بلادنا لا يمشي الناس فرادى ولا يحبون الإسراع ولا يهمهم دوران عقارب الساعة ويحبون أن يضحكوا بصوت عالي ويتكلمون بصوت أعلى، يحبون إلقاء التحية ولونهم متشابه، أتظنين إن أحضرنا أهل تلك البلاد الهادئة الجادة هل سيكرهون بلادنا أم ستعجبهم تلك الحيوية فينا، على أي حال في البداية عندما إنتقلت إلي هنا أصابني الفراغ، أفتقد صوت الناس العالي في الشارع وتباطئ سيرهم وتلك الضحكات العالية التي لا تخشى أحد، كل ما يوجد هنا هو الهدوء حتي الطقس هنا هادئ بنسيم لطيف خفيف وحتي حين تمطر السماء تمطر بإنتظام بإعتدال، ربما أبالغ وربما إعتدت المبالغة ولكن ما هي الحقيقة إذا لم تكن ما أعتقد، إنه لأمر ساحر وعجيب في مشاعر الإنسان أنها غير قابلة للقياس ولا يوجد خطأ فيه، فما تشعر به هو ما تشعر به لا يوجد سبب لأن يكون غير حقيقي أو مبالغ فيه، وأعتقد أن هذا هو سبب صداقتنا أو أي صداقة أنه ربما وبقدر بسيط ترين الأشياء كما أفعل وتدريكينها كما

أدرك وما أشعر لا يكون أبداً مبالغ به بالنسبة لكِ، وربما عزيزتي لهذا أكتب لك لأنه لا يوجد من سيفهم أو يشعر، عزيزتي سيمطرون علي سيل من كلمات التشجيع إن حكيت ولكن انتِ الوحيدة التي لا تقدر على ذلك لأنك تشعرين بما يحدث حقاً فلا تجرؤين على قول تماسكي و ربما تجلسين صامتة بجواري، ولهذا عزيزتي أكتب لكِ لأنهم مهما قالوا أنهم بجواري حين الحاجة، وحدك جلوسك صامتة بجواري يثبت لي ذلك.

عزيزتي،

ماذا لو قدر لكِ العيش مع شخص لا يرى الأشياء كما ترينها ولا يكيلها بميزانك، عندما سألت نفسي هذا السؤال سنوات مضت، قلت وما الذي يجبر شخص على العيش مع شخص بميزان مختلف وكيف يحدث ذلك فلا يكون الحب إلا بإدراك نفس الأشياء بنفس الطريقة ولكن حدث ورأيت أخي و زوجته.

بدأت الأمور بينهما تأخذ منحنى آخر غير الذي كنا نظنه، في أول الأمر كان إختلافهما إختلاف بسيط ربما على الألوان أو الطعام أو حتى بعض الأراء السياسية، إختلافات تظهر بين كل الأشخاص فلم نعيرها الإهتمام، أعتقد ربما بدأ الأمر حينما أتى عمي إلى البيت، وربما هي تعليقات أخي على حياته فحينما يقول عمي أن ما حدث كان خارج عن إرادته وأنه بعد كل ذلك يتمنى لو عاد به الزمن ليختار وظيفة عادية وزوجة وأبناء، علق أخي بتفاهة ما قاله وأنه فعل خيراً بعدم إرتكاب حماقة الزواج وثم مدح حياة المغامرين التي عاشها عمي، حينها ضحكنا وكانت زوجته أول الضاحكين، ولكن الطريقة التي قال بها أخي لم تكن لإضحاكنا وربما حتى هو تفاجئ من ضحكنا، كانت الطريقة التي يتكلم بها كالذي تسنت له الفرصة أن يتحدث إلي جموع ثورية فيحرضهم ضد جلادهم، كانت عدائية

بوضوح وأول من لاحظ ذلك أمي فمدحت في زوجته وقالت أنه لو تسني لكل رجل أن يجد مثل زوجته ما عهدنا الزواج حماقة، وهذه المرة ضحك هو بصوت ولكن بخجل الذي أخطأ فيما فعل.

بالطبع عزيزتي لم أكن لأذكر هذا الموضوع لولا ما تبعه من تداعيات، فكان أخي وزوجته تارة تشعرين كأنهم "روميو وجوليت" وتارة تشعرين أن بينهم حرب، ولكن أسرار حربهما تبقى أسراراً فلا يمضي يومان ويعلنان الصلح ويعودان، كل هذا بالنسبة لنا كان عادياً ولم نلحظ ذلك الفرق وإختلاف الموازين في هذا إلا حينما تشاجرا بشأن الإنجاب، قبل أن يتزوج قرر أخي عدم السفر والبحث عن عمل في البلدة وحينها وجد عملاً لدى مكتب محماة وهكذا قرر أخي التضحية بالعمل خارج البلاد في شركة كبيرة والعمل في البلدة في البداية ظن أخي أو كان هذا ما يريده، وتزوجا ولكنه عزيزتي لم يغفر لها أبداً هذا، فإذا حدثت مشكلة صغيرة في عمله جاء ليفرغ غضبه عليها، ربما أنا منحازة لبنت جنسي وربما أملك مكيالها الأنثوي أياً كان فهذا ما شعرته حينها، وجاء اليوم الذي قررت فيه الإنجاب وأخبرته وكان قراره الرفض ولم يُبد أية أسباب، حدث ذلك في الشهر السادس من الحصار، وكان النقاش بينهم حاد وملئ بتبادل الإتهامات وأسرار تلك الحرب أذاعوها، أتذكر أنه حينما علمت جدتي بذلك نادت علي في غرفتها وسألتني إن كان أخي يريد الزواج بآخرى، لا أحد كان يفهم أخي ولا أحد رأى ميزانه ففي ذلك الوقت كان المكتب الذي يعمل به قد أُغلق بسبب الحصار وعندما ذهب للبحث عن آخر كانت القضايا شحيحة وأي قضايا أمام الحصار، عرفنا ذلك بعدها بأسبوعين من حدوثه بالصدفة فعزة نفس أخي لم تجعله يخبر أحد، حينما عدلت زوجته عن القرار وأبدت المساندة تشاجر معها مرة آخرى وأخبرها أنه لا يريد الشفقة ولا يحب أن يظهر منها ذلك

فإعتذرت، ربما عزيزتي سارة في تلك اللحظة بدأت ترى ميزانه وبدأت حقاً في أن تدرك الأمور كما يدركها هو، لذا بعدها بشهور عندما أخبرنا أنه يريد أن ينضم للمقاومة كانت هي أول من أدرك ذلك حتى قبل أن يقوله، حينها جُن الجميع فأمي لا تعرف هذا الشخص الغاضب الذي صار عليه وأبي يشك في أن وجود عمي هو ما زرع تلك الأفكار في رأسه وجدتي تدعو له ليل نهار، أما هي فلم تتكلم ولم تناقشه، بعدها كان أي نقاش بينه وبين أحد من البيت ينتهي بالشجار، لم يعرف أحد سر ذلك الغضب في أخي، أعني كلنا مررنا بنفس الظروف ومن حولنا من مر بأشد منها فكيف خرج ذلك الغضب من أخي الحكيم، على ذلك لم يترك أخي البيت رغم قراره وكأنه كان ينتظر منها أن تأذن له، وفي يوم فعلت، وسط إندهاش الجميع وافقت، وهنا شعرت أن هناك سر بينهما، سر يبرر تصرفات كليهما أو تمنيت أن يكون، تمنيت بشدة أن يوجد ما يبرر تلك التصرفات وما يجعلنا نؤمن أن ما فعلوه هو الأفضل ولكن عزيزتي ما زاد حيرتنا أنه في اليوم الموعود حينما قرر أخي الرحيل أخبرته بأنها تحمل طفلاً، أراد أخي ضربها، رأيت ذلك في عينيه أراد ضربها بشدة لكنه لم يستطع، جعلته مكبل الأيدي والأرجل لا يدري ماذا يفعل والغريب أنه أحب ذلك، أراد طفلاً بالطبع فأي أب لا يريد؟ ولكن ليس في تلك الظروف.

ظلت أمي تدعو لها دهراً.

بعد كل تلك السنوات يا عزيزتي، لا يشغل بالي سوى "لو"، لو عرف عمي أن أخي لن يرحل أكان ذلك يغير شيئاً، أكان يبقى عمي، أكان يرتاح بال أبي وتترابط أواصرهما مجدداً، لو قدر لجدتي العيش أكنا نظل في حمص الان؟ ولو قدر لأطفال دراعا مصيرآخر أكان يُكتب لنا البقاء أم أن ما حدث كان تراكم لهموم طالت وذلك ما كسر ظهر البعير.

تساهل أخي لأيام وعدل عن قراره ولكن عقله لم يكن معنا كان يحلق في فضاء أخشى أنه ليس له نهاية ولا نعلم ما الذي حول أخي لتلك الحالة، لاحقاً سنعلم بأمر الحادثة سيخبرنا أخي بها بعد أن يقرر أن الإنضمام للمقاومة قرار لا يريد التخلي عنه وبعد أن يضع ضوابط لذلك لكي لا يُعرض طفله للخطر ولكن عزيزتي سأخبرك أنه بعد أن إنضم لهم، لمعت عيناه من جديد وكأنه إسترجع ما كان قد ضاع كأنه إسترجع حقاً أو إسترجع كرامة أو إسترجع وطناً، لأصدقك القول منذ أن فعل ما فعل وأصبح هو الأمل بيننا وكان ذلك يثير كل الإستغراب فينا فكيف لمن يحمل بندقية ويشاهد الدماء وهدم المباني أن يحمل خيالات لوطن حي مشرق ويدافع عنه رغم معرفته بإختلاف الواقع، وفي الواقع عزيزتي أن ذلك بعد التفكير لا يدعو للحيرة فحتى الأطفال يلعبون تحت ظل تلك الصواريخ والأمهات يخرجن لشراء ما قل من زاد البيت والأباء يبحثون عن عمل والجميع يتصرف كأنه على الحياة أن تستمر وأن إحاطة الموت بالمدينة لا تعني أنه لن تكون هناك حياة، عزيزتي في مدينتنا كانت الحياة ترقص تحت ظلال الموت وأمام عينيه والمسكين لم يستطع حتى الإمساك بها.

في إحدي حاراتنا، كان بعض الأطفال يمارسون الحياة بشكل طبيعي فيلعبون بالكرة تحت الدخان أعينهم مركزة على إطاحة الكرة يميناً ويساراً غير خائفين من صوت الطائرات المحلقة حولهم ولكن ربما فعلت الكرة ففرت هاربه بعيداً عنهم، فذهب أحدهم وراءها ليطمئنها ويعيدها لمكانها الطبيعي ولكن عندما وصل لها لم يعد هو لمكانه الطبيعي ولم يعد لبيته هذا اليوم ولم يلعب الكرة مرة آخرى ولا رفاقه عادوا فقد هدم مبني قريباً منهم أو قل على رؤسهم وظلت الكرة هاربة.

حسناً عزيزتي دعيني أخبرك هذه القصة مرة آخرى، ذهب أخي للعمل ضائقاً بما يرى فوجد أطفال يلعبون فقرر أن يتأخر بضع دقائق ويلعب ولكن عندما أطاح الكرة قتل طفل وعندما جرى لإنقاذه قتل أطفال، هذه ما وعيه أخي ربما يكون تكليفاً وحمل لثقل لا يقدر الإنسان على حمله ولكنه ما حمله أخي على أية حال، ربما شعر بأنه ينتقم أو يعتذر لمن رحلوا أو ربما قرر كتابة العذاب على نفسه ليخفف من ذنبه إن لم يفعل ولكن على أية حال أعتقد أن أخي فعل الصواب في كل مرة كان عليه أن يتخذ القرار وأنه كما تقول أمي يفوقني حكمة.

عزيزتي سارة،

كم تمنيت أن أخبره ذلك.

العاشر من يناير 2018

عزيزتي سارة،

اليوم هو عيد ميلادي، لم أكن لأتذكره ليس لأني لا أهتم بل لأني ومنذ إنتقلت إلى هنا أصبحت الأيام بلا أرقام ولا ترتيب، أيام مكررة ينم عن تغيرها تغير ثياب من حولي لا أكثر ولكن هذة المرة حدث ما أعترض طريقي فجعلني ألحظ ذلك اليوم، عزيزتي اليوم وأمام منزلي تُركت هدية أمام عتبة الباب، نعم عزيزتي في البداية ظننت أنها ربما وقعت من شخصٍ وهو صاعد إلى بيته أو أخطأ العنوان، رغم توافق الحدث إلا أنني تركتها مكانها لكي تعود لصاحبها أياً كان، تركتها لتعود ولكن فكرتها صاحبتني أينما ذهبت وعلقت بأفكاري حين كنت أعد درجات السلم نازلة، أو ظهرت في كل بيت مررت به وحتى في الحافلة بدا وكأن الجميع يحمل علبة زرقاء مربعة الشكل لامعة، وتفكيري حينها لم ينحصر على ما قد تحتويه تلك العلبة ولكن من وضعها أمام البيت فذهبت إلى العمل وأنا أتفحص وجوه من حولي مرة أخرى، ربما تخونهم تعبيرات تتماثل لوجهي بين لحظة وأخرى ولكن تلك الأفكار في عقلي خاضت حرباً آخرى مع أفكار تؤمن بأنها غلطة وأن صاحب الهدية أخطأ العنون.

أيعقل توافق التاريخ؟

إحتمالات أن أشارك يوم ميلادي مع شخص آخر كثيرة.

وهل يُعقل أن يشاركني نفس الشخص عنواني؟

للقدر ألاعيبه.

وله هداياه أيضاً.

عزيزتي سارة،

أتذكر يوم ميلادي الرابع عشر، كنت أعد الأيام حتى ذلك اليوم وأُخفي ذلك الأمر على من حولي حتى أرى هل يتذكرون؟ لم أكن أعلم لما فعلت ذلك لأنهم في كل سنة يتذكرون ويهنئون ويحملون الهداية، ربما لرغبتي هذا العام في شئ غير عادي وحدث يغير نمط الحياة المتكرر أو ربما لأنني أردت أن أنتظر شيئاً وأعلق نفسي بحدث ولكن على عكس كل عام لم يتذكر أحد ولم يُهنئ أحد وبقيت وحيدة مع خيباتي، يومها سافرت أمي لجدتي وذهب أبي لعمله دون كلمة وأخي كما هو مسافر لدراسته ولم يتصل، شعرت بالوحدة أو قولي تصنعتها، على أية حال خرجت يومها أسير بلا وجهة لأن إنتظاري لهذا اليوم تحول لرغبة شديدة بمروره والبدء من جديد ربما تحدث غداً حادثة، كانت خطواتي تحمل للأرض العداء فكنت أضربها كما لو كانت هي من أنستهم ذلك اليوم وفي منتصف طريقي نحو اللا شئ رأيتك، كنت تسيرين على عكسي تبحثين عن شئ عن مكان أو عن شخص عيناك تاهت بين كثرة الناس، لم أكن أعرفك بعد، أعني كنت أعرف أنك الفتاة من المدرسة ولكن لا شئ أكثر، حينما تلاقت أعيننا تجاهلت الحدث وسرحت بعيني بعيداً وأسرعت في مشيتي قليلاً وانا أدعوا الله ألا تكوني قد لاحظتني ، حينها قفزتي أمامي وبدأتي أنتِ السلام فشعرت بالخجل كنت أود الإعتذار ولكني فضلت أن أخبركِ أني لم ألحظك، سألتني إن كنت ذاهبة لمكان ما فأخبرتك أنه لا وجهة لدي فقررتي مرافقتي رغم أنه بدا عليكِ عكسي أنكِ في طريقك لهدف ما، صمتنا قليلاً ثم أخبرتني أن هناك طيراً يلاحقنا، تعجبت، فأشرتي عليه في السماء وغيرنا وجهتنا عدة مرات لنثبت حقيقة أنه يتبعنا ولكن ما حدث هو أننا فقدناه، فقررنا البحث عنه وصرنا نمشي كالمجانين ناظرين للسماء تمسك إحدانا بالأخرى مخافة أن تصطدم بأحد، لا

أعلم فيما كنا نفكر حينها و لكن الطريقة التي سارت عليها الأمور أعجبتني، حينما تعبنا جلسنا تحت شجرة، وتشاركنا الحديث، تكلمنا عن لونك المفضل وكم أخٍ لدي، تكلمنا عن إعجابك بخطاب مارتن لوثر كينج وتكلمت عن شعر شوقي، تكلمنا عن الأزياء وعن الموسيقى، تجادلنا حول مسرحيات شكسبير وعن الحرب وعن السلام وعن أشياء أخرى لا تمت لبعضها بصلة وقد وقعتُ عزيزتي في حب ذلك التناغم وتلك القدرة علي إستكمال حديث بعضنا بعض دون تفكير، وفي نهاية اليوم أخبرتك أن اليوم عيد ميلادي، فقررتي أن تشتري لي المثلجات، وفعلتِ وإنتهى بنا اليوم نأكل المثلجات ونتشاجر أي طائر في السماء كان هو من يلاحقنا.

اليوم حين رأيت تلك الهدية تذكرت أن اليوم عيد ميلادي وتذكرت ما كان يعنيه ذلك اليوم وتذكرت طائرنا فقضيت اليوم أمعن النظر في سماء هذة المدينة متمنية أن يكون ذلك الطائر هو تميمة حظي الذي رافقني كل تلك الرحلة.

منذ قدمت إلى هنا وانا أحاول إيجاد التشابه وإكتشاف النمط العجيب الذي يصل بين هذة المدينة وحمص، حين قال أبي أننا مغادرون ظننت أننا سنغادر من حمص المدمرة إلى حمص القديمة التي إعتدها، وهذه نوعاً ما لم يجعل خروجي غريباً أو محزن ولكن الحزن كله حضر عندما أكتشفت أننا حقاً غادرنا وأن شيئاً لم يعد كسابقه، ربما أدركت أنني لم أحزن كفايتي حين كان الحزن مطلوباً فقررت أخذ نصيبي من الحزن الان، والأحق أني لم أقرر شيئاً بل هو من قرر الحضور عني.

حينما وصلت هذة البلدة وحدي ولم أجدهم، إعتنقت فكرة أنهم جميعهم بخير وأنهم ربما وصلوا مكان آخر قضيت قرابة العام أبحث في وجوه من حولي وأسأل وأتتبع، في المنتصف كانت تلتهمني خيبات

الأمل ولكن لا أستطيع الإستسلام لها ولا أستطيع أن أعتنق فكرة غير هذة، فأغرقت المكان حكايات عني وعنهم وكررت أسمائهم وسماتهم وما أحب وما أكره، كل ما فعلته هو التحدث ولا شئ غير التحدث عنهم وكلما أرحل أعتنق فكرة جديدة تواكب أحداثي وتكفيني شر الخوف، أنهم ربما رحلوا وأستقروا في مكان ما يبحثون عني فأخبرت كل من يعرفني في المخيم مكاني وكيف يصلون إلي وأخبرتهم إن سأل أحد عني أن يدلوه، ربما عزيزتي لم يقلها أحد لي في ذلك المخيم، ربما إستمعوا لي جيداً وأنا أحدثهم ولكني في داخلي ولو حتى جزء صغير مني كان يعلم الحقيقة والغريب في الأمر أن ذلك الجزء الصغير هو ما كان يحرك ما بقى مني لكي يعتنق ما أعتنق من أفكار.

اليوم فقط عندما رأيت تلك الهدية على الباب لمعت في بالي تلك الفكرة، إنهم علي قيد الحياة وقد وجدوني وأنني سأعود في آخر الليل لأرى وجوهاً إنتظرتها نتظرني.

في الليل عزيزتي، عرفت مرسل الهدية، وعرف قلبي طريقاً مؤكداً للحزن وإستولى ذلك الجزء الصغير المؤمن برحيلهم على عقلي، رغم إحتفالي بأعياد ميلاد كثيرة وحدي إلا أن ذلك اليوم تأكدت وحدتي وأُعلنت ولم يعد هناك مجالاً لإعتناق أفكار غير الحقيقة، طوال تلك السنوات وانا أعتنق الكذب وعلي معرفتي أنه كذب، اليوم فقط قررت الحقيقة إعتناقي رغم رفضي.

عزيزتي،

لو قدر لي ميلاداً آخر في حمص، لجلست أمام بيتنا أشاهده ليلة كاملة وأشاهد الشمس ترمي ظلها عليه على مدار اليوم وأشاهد كم أختلف بيتنا في الفجر عنه في الظهر وعنه العصر وعنه عند الغروب، سأشاهد النجوم حول البيت، وبعد أن أخطو على عتباته المهترئة

سأدخل لأشتم رائحة بيتنا وأرى تشقاقته الصغيرة، سأحمل بعض الصور وأحملق فيها، سأغلق باب القبو للأبد.

لو قدر لي ميلاداً آخر معهم، سأحدق في وجوههم إلى الأبد، سأستمع لحكاياتهم المكررة، سأتشاجر معهم، سوف أكل من طعام أمي حتى السمنة، وأشرب شاياً مع أبي، سأخبر جدتي أن تحكي لي حكاية أخرى عن غولاتها، وسأطلب من عمي أن يحدثني عن أبي صغيراً، وسأطعم صغير أخي مرة بيدي، سأخرج معك عزيزتي نطارد الطيور ولا يهمني إن ضحك الناس أو تناقلوا الأحاديث.

هذا فقط لو قدر لي ميلاداً أخر، لو قدر لي آخر.

عزيزتي سارة،

ربما تعرفين تفاصيل ذلك اليوم أكثر مني، ولكني أردت أن أخبرك أن تلك المثلجات، ذلك الخليط من الحليب والشكولاته كان هو أفضل هدية حصلت عليها

الحادي عشر من يناير 2018

مُطارِدة الطيور

عزيزتي سارة،

أود أن أسألك، حينما غادرتِ أنتِ وأسرتك كيف جهزتي نفسك للرحيل، أعني ما الأشياء التي تخليتي عنها أولاً، غريب مثل ذلك السؤال بعد كل تلك المدة ولكني وددت لو أعرف، حينما رأيتِ حقيبة السفر فاتحة فمها لكِ، ما الذي قررتِ إنقاذه معك وما الذي تخليتي عنه، لم أجرب ذلك الشعور أبداً، فحينما قررنا الرحيل كان الوقت قد تأخر وأحتد الخطر بنا ولم يبقَ سوى بيتنا بين أكوام الهدم ينتظر مصيره المحتوم محمل على طائرة، لم يتبقى سوانا والقليل من الناس والكثير من الجثث حينها في البلدة، حتي تعب الأحياء من دفن الأموات، وأصبح قرار الرحيل ليس قرار تتخذه وحدك أو تقرره الأموال بحوذتك بل أصبح منافسة على الحياة بين الحشود الغفيرة الطالبة لها، فما الذي يميزك عن باقي منافسيك للحصول عليها؟

لم تكن كإنتقاء الطبيعة فيكون البقاء للأقوى بل كان أشبه بنردٍ يُلقى، مجرد إحتمالات تحدث تبعاً لحظك، وأنا عهدت حظي عثر.

فحينما تسنت لنا فرصة الرحيل، كان علي التخلي عن كل شئ لأتمسك بحياتي ولو قُدر لي الإختيار ربما كنت سأختار ثوباً أفضله وكتاباً لا أمل من قرأته ربما سأخذ بعضاً من الصور وعقداً أهدته لي أمي، كنت سأختار تلك الأبديات الصغيرة التى لا تموت ولا ترحل ، ولكن ما كنت سأتخلى عنه حتماً هو قلماً ورزمة من الأوراق، وهو كل ما أمتلكه الان ولو خُيرت بتركه لن أفعل.

عزيزتي، قرر أبي الرحيل حينما لم يجدوا جثة أخي، جاءنا الخبر متأخراً ذلك لأنهم لم يعثروا على جثته وأيضاً لأن من كانوا معه بالمقاومة أخذوا يتناقشون من عليه أن يسوق الخبر إلينا وأي الخبرين

أشد وقعاً، ماذا يقولون وكيف، هل سيصلون عليه؟ هل سيكون له قبراً نزرع بجواره الورد؟ هل في يوم سيأتي ابنه لصخرة تحمل اسم والده حينما تثقله الحياة؟

تنازعوا فيما بينهم ليخبرنا أحدهم بأجوبة تلك الأسئلة فطالت المدة حينما عرفنا، ولكن أمي عرفت، عرفت منذ وقوع الحادث، أستيقظت ليلاً تقول أنها سمعت طرقة أخي على الباب وظلت أيام بعدها مستيقظة تنتظره وحينما طُرق الباب، سيق إلينا خبر نعيه.

كان قرار الرحيل محل نقاشٍ قبل وفاته بأسابيع ولكن أمي تمسكت به، قالت إن كان راحلاً معنا فنرحل، كنت أعرف ما ستتخلى أمي عنه أولاً عند الرحيل وكان هو الرحيل من دون أخي ولكنه قرر إزلة ذلك العبء عنها، الغريب أن أمي لم تبكِ ولا صرخت، بل بلل خديها دمعتان ثم كفت، بكى أبي ذلك اليوم أكثر، وأكثر من بكى هي زوجته، لم نكن نعلم أتبكي ولدها أم زوجها أم قرارها بتركه يذهب.

بكيت ولكني بكيت تلبية للواجب وتضامناً مع من بكوا وحفظاً لماء الوجه، ولكن الحق عزيزتي أني لم أشعر بشئ حينها ولا حتى وخز صغير في قلبي، شعرت ربما شعور أمي، أن هناك شيئاً خاطئاً أنني ربما في كابوس سيتنهي بعد ثواني، أو أنه بعد أيام سيأتي أخي حياً ويقول لنا أنهم أخطأوا، ربما سأجده مع عمي يحكون كفاحهم، ولكني عزيزتي على عكس أمي سأبكي حين نغادر، حينما أتأكد أن ذلك ليس حلم وحينما أرى بيتنا من بعيد ولا أدرك حولي غير أبي وأمي، حينها سأبكي مرتين، مرة لوفاة أخي ومرة لأنني لم أوفيه حقه بالبكاء حينما عرفت.

بعدها أتت النساء تواسين أمي وتحكين لها عن حظه وعن أجره ولكن أمي لم تتكلم بل أعدت الشاي، نعم عزيزتي أعدت الشاي، ووزعته

على الجالسين ثم يأتي المزيد من الناس فتقوم لعمل مزيداً من الشاي وهكذا مرت أيام العزاء.

قال لنا زملاءه أنها كانت قنبلة ألقت على مبنى هو فيه.

لما قد يُلقي أحدهم بقنبلة على مبنى؟

لو علمت عزيزتي أن هناك سارقاً أو قاتلاً في هذا المبنى فلن تفعلي لأن هدم المبني تكلفة كبيرة على شخصٍ يمكن إمساكه أو حتى التخلص منه بطرق أبسط ولكن الفكرة عزيزتي في أنه لا يوجد قاتل أو سارق في هذا المبنى لتقفي أمامه مشهرة سلاح في وجهه وبكل ثقة تجعلينه يدفع ثمن أفعال ما، ما يوجد في ذلك المبنى أو أي مبنى آخر من مدرسة أو متجر أو مخبز أو محل أو أي شئ، هي أرواح طاهرة عزيزتي، أرواح لا تقدرين علي إشهار سلاح في وجهها، أرواح لا تقدرين على النظر في عيونها قبل ضغط الزناد، عزيزتي أيام مضت بعد ذلك تسائلت، تري ما شكل ذلك الذي ألقى تلك القنبله، ربما ضخم البنيه بغيض الملامح، له نظرات مخيفة تشعرين أمامه أنك بقبضة غول، ولكن الحقيقة هي عكس ذلك فربما كان شاب نحيفاً يحب الورود ولديه أماً عجوزاً تدعو له في كل مرة يخرج من الباب، ربما لديه فتاة يدللها، ربما هو معتاد على مساعدة الناس في حارته وربما هو يحب المثلجات وربما إذا قدر له أن يقابل أخي لتصادقا وعرفه أخي على عائلته وربما حتى كبرت فتاته وكبر ابن أخي تزوجا ذات يوم، ولكن الحادث أن قدره وقدر أخي اختلافا، ولم يكن ذلك بيده ولا بيد أخي بل هي أحداث تطورت على مدار الحياة، وتعقدت فأضحى من الصعب الرجوع إلى أولها.

قرر أبي الرحيل وفعلت أمي لقليل من الوقت وما ثنيها عن قرارها سوى قرار زوجة أخي بالبقاء، قالت أنها تفضل العودة لأسرتها وأن

تبقى معهم سواء قرروا الرحيل أم البقاء وبالطبع لم يستطع أبي غير الموافقة لأن الفتاة نالت قسطها من العذاب، ولكن أمي ثارت وصرخت وبكت أمام أبي، تريد للولد أن يبقى، وأبي لن يأخذ رضيعاً من أمه، وهنا عزيزتي أصبحت الغرفة ضيقة وشعرت حينها أن سطح المنزل قد أقترب من رأسي وأني لا أريد النظر إلى الأسفل، تحول بيتنا لساحة قتال كما بالخارج بل أشد وطئاً، رمى أبي وأمي الإتهامات قالت أنه لا يفكر في حفيدها ويقول أنها لا تفكر في ابنته، جن جنون أمي فأخبرته بأنه جبان.

وأختنق من في الغرفة.

لم يكلم أبي أمي بعدها بل بخطى ثابته خرج ليخبر زوجة أخي أنه سيوصلها إلى البيت، ورحلا.

لم يكن أبي جباناً تعرفين ذلك، ولكنه كان ليكون جباناً لو تركنا نموت أمامه دون أن يفعل شئ لمجرد عدم إتهامه بالجبن، لو كان بيد أبي حيلة أخرى ما اختار أن يوصف بالجبن.

في ذلك اليوم حينما عاد أبي لم يدخل المنزل بل بقى جالساً على عتبة الباب، رغم أن الليل حمل طائرات أكثر وصواريخ أكثر مما سبق ورغم أن الدخان كان يغيم على الشوارع إلا أن أبي ظل جالساً أمام البيت رافعاً عينيه للسماء ربما أراد أن يثبت خطأ أمي أو ربما هو مجرد شئ أراد فعله قبل الرحيل.

فكرت ذلك اليوم، لم تكن تلك أول مشاجرة بينهما ولا أول مرة يلقي أحدهما اللوم على الآخر ولكن كانت أول مرة يسيطر ذلك الشعور بأن ما بين أبي وأمي قد إنتهى، قبيل الفجر بعد أن هدأت أصوات الطائرات تسللت إلى الخارج وجلستُ بجوار أبي، لم نتحدث بكلمة قط، جلسنا بين الدخان تحت ظلال سماء مليئة بالنجوم لا تعبأ لما

تحكيه الأرض من أسى، كذلك جلسنا نتأمل غير عابئين بالخطر المحيط بنا، لم أشهد بلدتنا بمثل ذلك الجمال من قبل، بدا كل شئ وكأنه يلمع من خلف الدخان ويغرينا بالبقاء.

لا أحسبك تعلمين ذلك، ولكن على بعد كيلومترات من بيتنا كان هناك مجمع لأشجار مختلفة أمام بيتنا، رغم أن مكانها لم يتغير ورغم أنني أراها كل يوم ويعجبني إنتظام الأشجار فيها إلا أنني لم أفكر يوماً بالزيارة أو الإقتراب، يومها قلت لأبي ذلك فظهرت إبتسامته وعرض علي الخروج للتمشية، يومها لمعت عيناي وجريت بسرعة أسحب وشاحاً أغطي به رأسي وعدت له، ولم أكن أعلم كيف لبضع أشجار أن تسحرك بذلك الشكل وأن تقنعك بالبقاء رغم الخطر، حينما رأيت تلك الأشجار عن قرب عزيزتي، تغير شئ بداخلي، شئ هو أشبه بالإستسلام إذا كان ذلك ما يتطلبه للبقاء هنا، في ذلك اليوم لم يأخذني أبي عند الأشجار فقط بل ذهبنا إلى السوق و عبرنا أمام المدرسة ودكاكين الحي والمسجد الذي إعتاد أبي الصلاة فيه والسوق، ورغم أن كل تلك الأشياء كان أغلبها حطام يلامس الأرض إلا أنه احتفظ بسحرة حتي النهاية.

عزيزتي سارة،

كانت تلك الزيارة بمثابة الوداع الذي ألقيناه على أعتاب البلدة قبل الرحيل بهدوء تحت ستار ليل أخر.

الخامس عشر من يناير 2018

صديقتك المنتظرة

عزيزى أدم،

قد تجد ذلك الخطاب غريباً بل على العكس هو أغرب ما قد تصادفه عني بالنسبة لك ولكن بالنسبة لي فهو شئ عادي أفعله ربما كل ليلة، فقد توقفت عن عد خطاباتي منذ فترة، ولكنه ليس بغرابة ظروف تقابلنا، في البداية عندما دخلت المكتبة لم ألحظ وجودك رغم أن كفيفاً يتحسس الكتب مرتدياً نظارة سوداء كان كفيل بجذب إنتباه من في المكان ، كنت قد أتيت المكتبة بناءاً على ترشيح من صديقة لي، أقرأ لأبعد ضغط الحياة ولأكون صريحة عزيزي لست من النوع الذي يأخذ بنصائح الناس ولكن المكتبة بدت لي خياراً ممتازاً لأبتعد عن بكاء الأطفال وصوت السيارات وطلبات الزبائن لذا ذهبت، ولكي أحفظ ماء وجهي اخترت كتاباً عشوائياً لم أقرأ حتى اسمه وفتحته على مصرعيه، حينما سمعت صوتك بجواري ورأيت نظاراتك فكرت ربما أوقع شيئاً ويريد مني إحضاره ولكنك لم تفعل بل عرفتني إلى نفسك وطلبت مني أن أقرأ لك كتابي، ذُعرت حينها ولكنك بررت بأنك تفعل هذا منذ مدة تجلس في المكان وتطلب من مجاورك أن يشاركك كتابه، "تدع القدر يقرر عنك"، لا أعلم لماذا قرأتُ لك الكتاب ولا أعلم لماذا واظبتُ على الحضور إلى المكتبة وقرأة الكتب لك بإستمرار، لا نتكلم عن أنفسنا ولا نتعرف على بعضنا البعض ولا حتى نتبادل التعليق على الطقس، فقط أقرأ وأنت تستمع ولكني إستمريت، وهكذا عزيزي شجعتني غرابة علاقتنا على كتابة هذة الرسالة، ربما تتسائل لما لم أتصل بك لأخبرك ما كنت أنوي أن أخبرك به أو لما لم أرتب موعداً نلتقي فيه فأخبرك أو لما لم أنتظر حتى الصباح فنتقابل كعادتنا ولكن عزيزي ما سأخبرك به هو اشبه بما يقال في الروايات كلاماً غليظاً لن تفهمه إلا إذا كنت تحب

القصص بنهاياتها المختلفة حزينة كانت أم سعيدة أو حتى غير مكتملة، لذا فقبل أن ابدأ هناك قواعد يجب عليك إتباعها لتجنب إشعاري بالخجل، أولاً حين نتقابل غداً لا حديث عن الخطاب بل كعادتنا القراءة، فهو خطاب واحد سيمر بسلام وماهو إلا لتوضيح شئ عجزت عن قوله أو ربما أخذتني الدهشة فلم أدرك ما يحدث وما ينبغي علي قوله.

عزيزي ما جرى بيننا في صباح هذا اليوم من حديث على غير المعتاد، وما قلته اليوم حينما وصفت فراري من الحرب بإنتصارأثار في شيئاً يشبه الخزلان ولكنه أقوى، ودعني أخبرك ما لم أقله لك هذا الصباح لم أؤمن أبداً بأن "السر في الرحلة " أو أن "متعة الوصول زائلة" ربما ذلك لأنى كنت أذكر لحظة الوصول وكنت أعيد ذكراها مراراً فيعطي ذلك لمتعة الوصول إستمرارية مع إستمرارى في تلك الحياة فتصبح لمتعة الوصول شيئاً من الأبدية المؤقتة.

وربما لأنى لم أحب الرحلة فلم أجد فيها أي سر فقد كنت أجبرت عليها طلباً للوصول، فاذا لم أصل فأين هو السر؟

أيكون السر في تعلقنا بالمقصد الذي لا نعلم أنصله أم نرضا بما دونه ؟ أيكون السر بتعلقنا إلى هذا الحد بما هو على الشجرة ؟ وما يمكن أن يطير دون وصولنا إليه؟ حرب خاسرة فيكون عزائنا أننا حملنا السلاح وغطت أحذيتنا الوحل وأن السر في الرحلة ، ولكننا لم نكلف أنفسنا أن نسأل ما السر الذى حملناه خسارتنا وأدعينا انه زادنا قوة.

بالنسبة لي كان وهماً نحتضنه ونخفي فيه رؤساً خشيت أن تستقبل الخسارة كما استقلبت الفوز ونخفى فيه أنفس زكية فحتى الخسارة نادت بأنها فوز لأنه لا يصح أن ينسب لنا غير الفوز.

لم نفز ببساطة لم تكن الرحلة ذات مخزى ولن تكون أبداً إذا لم نصل إلى المقصد، فلا نريد إلا ما نريد وما خرجنا إلا بقلوب مكسورة وليس السبب خطأ في الأقدار أو عقاب أو حتى تكفير عن ذنب ما، بل أخذنا بريق تلك المدينة فلم نرَ سواه فظننا أننا غرسنا احذيتنا في الوحل وحملنا حقائبنا أم أننا اخذنا طريقا غير الذى وجب اتخاذه ولكن ماذا عن من وصلوا ؟

لقد كنا نمسكه بين يدينا بقبضة مشدودة، وكان إفلاته ضرباً من الخيال، كنا قد خرجنا من المدينة وحملنا على أكتافنا ما لا نطيقه ، لم نكن مستكشفين أو مغامرين لنجوب تلك الأرض بحثاً عن سر أو قصة لتُتلى ولم نكن حتى أبطال خرجوا للدفاع عن شيء مقدس ، فلقد كنا خائفين، خائفين لحد عدم رؤية ما هو نصب أعيننا ، ترتجف قلوبنا قبل الأجساد ولا ندرك سوى المقصد ، أجبرنا أنوفنا على تحمل رائحة الطريق وأزحنا أعيننا عن ما هو غيره وأصممنا آذاننا عن صوت بكاء الأطفال وحتى الكبار ، فلما لم نعد نرى نور ذلك المقصد ، وأصبحت مدينتنا سراباً فلا جاز لنا عودة ولا جاز لنا مقصد.

بقى في أذهاننا سؤال واحد ، ما الخطأ ؟ أشغلنا عقولنا بأحلام وردية عن ذلك المقصد فضللنا الطريق ، ربما، فالطريق لا يستقيم وكثيراً ما كنا نسقط و كنا نتعرض للجروح التي تتخذ أيام لكى تلتئم وربما لا تفعل أبداً وتترك آثار بشاعة ذلك الطريق على وجوهنا قبل أن تفعل بقلوبنا ، ولكننا كنا نقوم ونسير رغم أعوجاج الطريق ونحمل ما ثقل من أمتعتنا ونكمل ، وكان الطريق موحل فلا نرى موطئ أقدامنا، وكان الضباب يعم المكان، ولكن كان هناك ضوء يشع من بعيد كلما إزداد ظلام الليل وعندما يحكم الليل عبائته السوداء ، يسحرنا ذلك الضوء ويشعل في قلوبنا الدفء ، كان يعيد ذلك الضوء

إيماناً في قلوبنا ورغم البكاء يجعلنا متماسكين ، يجعلنا ننسى الندوب في وجوهنا ولا نرى سوى البريق في عيون الأطفال

لقد ظننا أن الطريق طويل وكنا على الرغم من خوفنا من أن نضله أو تتبدل قلوبنا أثناء السير فيه إلا أننا قبلنا التحدى و تشابكت أيدينا ، فهل بعد ذلك نرتضى ما هو دون المقصد ؟

في ذلك الوقت كنا أبعد ما يكون عن المقصد وأبعد ما يكون عن مدينتنا.

فلا جاز لنا المقصد ولا جازت مدينتنا، ولا عرفنا ذلك السر الذى وصلنا به رحلتنا.

فقدنا أشياء كثيرة ولكن حزننا عليها كان أقل من خوفنا على ما سنفقده ، تشبثنا بوهم أو حلم أو شيء بين ذلك ولكن ما علمناه بعد ذلك جيداً أنه على مقدار سعينا وراءه كان هروبه منا لتظل تلك المسافة بيننا وبينه ثابته ولا نحظى إلا بأنفاس متقطعة وأمل زائفة ويأس مختبئ خلف الأشجار، وأكثر ما فقدناه فى ذلك الطريق هو حياتنا.

كانت معركة خاسرة من البداية فلما تحاملنا ولما تمسكنا ولما أضعنا ما نملك لنحصل على ما لا نملك ؟

والسؤال كان مطروح أمامنا كجثة هامدة ومتعفنة لا تستطيع التغاضى عنها أبداً.

لماذا رحلنا ؟

الخامس عشر من يناير 2018

الفتاة في المكتبة.

عزيزتي سارة،

أمطرت السماء اليوم، وقد حذرت الأرصاد من تقلبات الجو والرياح الشديدة على أنحاء البلاد، لذا أُغلقت أغلب المحال والمطاعم باكراً هذا اليوم مما سمح لي ببضع ساعات من الراحة هذا اليوم، ودعيني أخبرك عزيزتي من أمام نافذتي المغلقة بإحكام بأن الأمطار هنا كثيرة، تسقط متلاحقة وكأنها حبات عقد قطع خيطه فإنفرطت، وتطيل السقوط لساعات فكأن ذلك العقد بلا نهاية وهنا الناس لا يمتلكون ثقافة المطر أو قولي إعتادوا على سقوطه فأصبح حدثاً عادياً، ذكرني ذلك بطقوس سقوط المطر عندنا، حينما تبرز الرؤس من الشرفات وتمدت الأيادي الصغيرة خارجها سامحة لحبات المطر بإختراق تلك الجلود، عزيزتي كان عندنا التبلل بالمطر مثل مباركة من السماء قد توبخكِ والدتك على هذا أَو تلازمين الفراش يومين أو أكثر ولكنك تعيدين الكرة في المرة القادمة أو على الأقل تبللين طرفاً او ذراع أو حتى سلامة من يدك، أتذكر تلك الرائحة التي يختلط فيها الزرع بالمطر، هل تعلمين كم مرة أمطرت خلال حياتي، لا أعلم ولم أعد ولم أكن أظن أن تعلقي هذا بأرضٍ عشت عليها قد تجعلني أفرق حبات المطر عن بعضها ولكن ما أتذكره يوم أمطرت حين كنا راحلين، كان ذلك آخر مطر شاهدته على تلك الأرض، كنا قد حزمنا الحقائب بضع مرات، وعقدنا العزم علي الرحيل بضع أخرى ولكن ما حدث أن القذائف في تلك اليوم لم تتوقف بل تفاقمت حتى شعرنا أننا لن ننتهي حتى تختلط رفاتنا بتراب الأرض، قضينا يومنا في القبو مع الجيران، المكان مظلم ولم يعد لدينا ما يكفي من طعام وشراب ولم يكن الخوف فقط هو ما يخيم علينا حينها بل انتقل شبح الإنهاك بيننا، إنهاك سنوات

من الترقب والتفكير والجوع، بدا على وجوه الناس كل ذلك وحملت عيونهم أكثر فكانت الأجساد تقف أمامي نحيلة عيونهم تترقب من يخصها وتتشبث الأيادي ببعضها ليس فقط للتأكيد علي عدم خروج أحد من الأطفال بل لأنهم إذا قدر لهم الموت يكون الموت قد زارهم مطمئنين على أحبائهم، لم يكن إنتظار ذلك اليوم في القبو كأي إنتظار لأننا قد عزمنا علي الرحيل فكنا نتسائل هل نفعل وننجو للأبد، فقد كانت هذة المرة أو أبداً، عزيزتي في ذلك اليوم توقفت الطائرات لدقائق معدودة وكثرت التفجيرات وكان خروجنا ذلك اليوم شبه معجزة، ظللنا هكذا حتى فجر اليوم التالي حينها أمطرت السماء، حينها بأسرع ما يمكن قررنا الرحيل وحينها أيضاً اكتشفنا أن ليس ما منعنا عنه هو الطائرات بل هو ثقل في أقدامنا كأنها مقيدة، مقيدة بالأرض أو ربما بالذكريات أو قولي بالموت.

كان دخان الهدم يسبح في الأجواء ولم نكن نتبين حينها الشوارع ولكنها الغريزة وطول المعاشرة ما قادنا، كانت برك الدماء في كل مكان ولم يكف أبي حينها عن الحديث حتى يجذب إنتباهنا وأمي تسحبني من يدي، عزيزتي أقول لك أنني لم أخرج أبداً بعد سقوط للقذائف كنت فقط أدرك أنه شئ قبيح، وحين تأتي سيرة الموتى أو الجرحى أبتعد، حينها أدركت سوء الأمر.

في البداية تملكني ذلك الخوف من أن أرى وجهاً أعرفه وعيوناً ألفها ولكن ما الفرق عزيزتي، أياً كان من قتل فإنه سيقتلني.

في الأمام كان يقودنا أبي وأعلم أن ثبات خطاه كانت تفضح إرتجاف قلبه وعقله المشتت بالافكار، كان أكبر من أي يوم مضى وكان يمشي كجندي في حرب خاسرة ولا يطلب أكثر من الشهادة كان مستميت على إخراجنا من هنا ربما هي حاجة في نفسه لكسر كلمة أمي التي أعلم أنها مازالت توقظه أو هي حاجة ملحة في نفسه أن يعجل بإنتهاء

الحرب وكأن خروجه من البلدة هو ما يوقفها، خلفه كنا أنا وأمي نتتبع خطواته في حرص فإذا إنعطف مسرعاً نفعل وإذا توقف نفعل وأقول لكِ في ذلك اليوم كانت أمي شاردة الذهن لم ترفع عينيها من على أبي رغم ذلك لم تتلاقى أعينهما، ربما كانت تفكر في ملايين الأشياء ومن بينها أنه لم يعد لنا ما نبقى من أجله، كنا قد خرجنا قرابة الشروق و سرنا كثيراً في منعطفات ودخلنا شوارع حتي نسيت من أي طريق سرنا، في النهاية عندما توسطت الشمس السماء وجدنا تلك الحافلة، كان يقف أمامها كثيراً من الناس من بينهم رجل عرفه أبي وسلم عليه عرفتُ لاحقاً أنه هو السائق، بدأ الجميع في الدخول إلي الحافلة وإتخاذ المقاعد على استحياء كل يدير وجهه عن الآخر أو يحدق في فراخ باعداً ملامحه عن الناس وكأننا نخشي إلتقاء الأعين فالأرواح وكأن التقائها بمثابة إعتراف بحقيقة تؤلمنا وتخذينا، بإعترافنا بأننا لم نعد نستطيع المقاومة بأننا خذلنا أحدهم، من أو ماذا لا ندري؟

جلست وأمي على مقعدين متجاورين وجلس أبي أمامنا، وطال بنا الطريق أكثر مما كنت أعتقد، بدا لي المكان حينما تحركت السيارة بلداً لا أعرفه ولا يمكنني تمييزه، لذا صرفت نظري عن الطريق ونظرت داخل الحافلة المكتظة بالناس، حملت أجيال مختلفة إلى الخارج فكان الأطفال والعجزة والشباب والنساء والرجال وأنا وأبي وأمي، من بين كل هؤلاء كان هناك طفل وعجوزاً يبكيان على إختلاف أسبابهم وغرابتها لم أستطع أن أفهمها حينها.

شعرت حينها وكان شعوراً صادقاً بأن الأرض لا تريد لنا الرحيل، شعرت بإمتداد جذور الشجر ببطء أسفل العجلات شعرت بإلتصاقها بها والتفافها حولها وشعرت أيضاً بها تُكسر، وشعرت بالصخر في الأرض يُضحي واحداً تلو الآخر أمام السيارة محاولاً إيقافنا ولكنها لا تخضع، شعرت حينها أن الأرض تشعر وأنها تحزن وأنها تفرح وأنها

طلبت ألا نتركها، لم أكن بحاجة لمنظار لأرى غبار الحزن في السماء ولألمح سرب الطيور يسابقنا للرحيل ولأرى ذلك الدمار التي انبثقت منه حافلتنا، إنه الرحيل عزيزتي، إنه ترك ما كنتِ تقاتلين من أجله لسنوات وكل ذلك أصبح في طي النسيان أو يجب أن يكون وكأنك مربوطة بمنطاد لن يطير بك إلا إذا قطعتي ذلك الحبل الذي يقيد قدميك ولكنك قضيت عمراً باحثة عن ذلك الحبل فهل ستتخلين عنه، خلفي عزيزتي كانت ترقد حكاياتي جدتي وبطولات عمي وعمره وكرامة أخي وجسده فهل أترك كل ذلك للأرض؟

ماذا لو كان هناك خطأ ما، خطأ جميل يكتب حياة لمن أعرفهم، ماذا لو لم يقتل أخي ولم يهرب عمي، ماذا لو كانوا مختبئين وسيعودون في ليلة إلى المنزل، ماذا لو أن منزلنا لن يُقذف أبداً ولن يلامس سطحه الأرض، ماذا لو كانوا هناك جالسين يتبادلون الحديث أو يلعبون على رقعة من الشطرنج، ماذا لو أن كل شئ سينتهي غداً ولا يحلق في سمائنا سوى الطيور، أهو ذلك السراب الذي يؤمن به الراحل، لا أعرف ولكن بدا كل شئ وكأنه يبكي وبدا علينا أننا لا نريد أن نرحل وبدت النظرة الأخيرة ساحرة.

امتد الطريق وبدونا عالقين في هذة الحافلة للأبد بين بدايتين لا نصل أياً منهما، في تلك اللحظة التي رأينا فيها نقطة التفتيش حين كنا على الحدود، اجتاح الناس أحاسيس مختلفة لم أميزها ولكن ما ميزته هي تلك النظرة علي وجه أمي وهي تشاهد السائق يتحدث لأحد الجنود، تلك النظرة المترقبة الخائفة الداعية بأن يكون كل شئ علي ما يرام لأنها لا تتحمل خذلان آخر وخيبة أمل أخرى، وبعدها عزيزتي كانت "الحمدلله" مصاحبة تلك التنهيدة المستريحة وكانت أول خطوة علي حدود أخري، حدود أملت ودعوت كثيراً أن تحتوينا بأوطننا الذي حملناها معانا.

الثامن عشر من يناير 2019

صديقتك المرتحلة في كل حين.

عزيزي آدم،

هل تراودك الكوابيس ليلاً، وإذا فعلت أتدفعك من فراشك ليلاً وتثقل تتابع أنفاسك وتجعلك قائماً الليل وحتى طلوع النهار، أم أنك عزيزي تبتسم في فراشك ليلاً، لأن تلك الكوابيس على ما هي عليه جعتلك تري ما لم تره في حياتك من قبل.

عزيزي، اعذرني على تبجحي و وقاحتي ولكني أريد أن أعرف، كما أن تلك الفكرة تعجبني جداً، تلك الرسائل التي نتبادلها سراً ونخفيها عن أنفسنا في الصباح فحينما نتقابل نصبح أشخاص آخرين لا يعرفون بعضهم البعض يقرأون كتاباً ثم يرحلون، ويبقي ما في الرسائل لنا وحدنا حينما يكون كل منا على حدى حيث لا نستطيع أن ننظر لبعضنا البعض فنعرف الكذب من الحق ونعرف ما يؤذي وما يُفرح، إن تلك الرسائل منحتنا هدية الإختباء، الإختباء في لون تلك الورقة البيضاء وأعطتنا حرية الكذب دون أن نكشف وأعطتنا حرية قول الحقيقة دون أن تدور في المكان بحثاً عن مخبأ يبعدها عن سهام الأسئلة، أعطتنا حرية قول ما لو قلناه لصفع أحدنا الآخر، تلك الصراحة المؤذية وذلك الكذب المتقن هو نصيبنا من تلك الرسائل، لذا لنبقيه على هذا الحال بيني وبينك ومن يقرأ لك رسالاتي.

حسنا والان بالنسبة لسؤالي، أردت حقاً أن أعرف؟

وأردت إذلالك، نعم عزيزي، أردت إذلالك، فعلاً أردت أن أقول لك بأنك ضرير، ثم أعتذر، أردت أن أعرف ما يعني أن يكون المرء ضريراً فسألتك وألححت في السؤال ثم إعتذرتُ حين لم تجب وأعرف أنك لن تفعل، إن هذا ما تفعله كل يوم حينما نتقابل، هو أن تذكرني بضرري وتلح على أن تعرف ما لا أريد قوله، أردت فقط أن أوضح

أن هذا ليس ككتاب تريد أن تغلقه كما فتحته ولا فيلم ستنتهي معانته بعد ساعتين من إمتاعك، عزيزي هذا ضرر وهي حيوات بدأت وإنتهت، وإنتهت بي إلى هنا وروايتها مرة أخرى ليس كمثل إلهام ينزل بي و يتجلى أمامك بل إنه جرح لا يلتئم أبداً وانا لا أريد غسله بالماء.

عزيزي، كلانا لا يريد حكي التفاصيل لأنها تؤذيه، ولكن العناوين واضحة ففتى مرتدياً نظارة سوداء ليس جيد في إخفاء عماه وفتاة مثلي لا تستطيع إخفاء هويتها تحت لحمها والتماهي في لون المدينة، الجميع يعرف أن مكاني ليس هنا ولا ينجحون أبداً في إخفاء تلك النظرة التي تعتلي وجههم حين يروني، إنها تعتريهم أيضاً عندما يشاهدونك ولكن الفرق بيننا أنك لن تراها وأنهم يعتادونك بعد فترة أما أنا فحركتي تثير توترهم وربما يقول أحدهم قولاً يغيظ أو آخر يُظهر الشفقة ولكن على كل ذلك فأنا أدير وجهي وأتخيل أنه شيئاً آخر ما يعلقون عليه ولكن الأمر ليس فيما يقولون، بل لأن مايقولون بمثابة رش ماء على جرحي.

فسؤالك لي اليوم هل ستعودين يوماً ما، كانت بمثابة سؤالي لك هل يُقدر لك يوماً رؤية الألوان، ليس البحث عن إجابة هي ما يشعل الحريق في رأسك ولكنه ذلك العالم الذي يقذف السؤال إليك وتلك السعادة التي تغزو غيمتك عندما تفكر في الإحتمال الجميل الأقرب إلى الإستحالة وتلك الرحلة التي تقوم بها لعالم لن يكون لك مكان فيه أبداً، ما يؤلم حقاً هو حين تتبخر كل تلك التخيلات وتجد نفسك وحيداً غريباً لا تعرف ما هي الألوان.

لهذا فإنك تتجنب السؤال وتتجنب الإجابة وتزور عالم الخيالات على فترات متقطعة.

أقدر لك إهتمامك عزيزي، وأعرف ما هو فضولك، وأعرف سلامة نيتك في كل مرة تحادثني عن تلك الإحتمالات وأعرف أيضاً أنك قابلت صديقتي يمنى وأنك تعرف عن حياتي أكثر مما يكشف سؤالك وأن ذلك السؤال ما هو إلا لتبرير معرفتك لحقائق من المفترض أنك تجهلها، عزيزي إن ذلك السعي خلف معاناتي _أكرر أنني أدرك سلامة نيتك_ لا يولد سوى ستائر تغطيها، فأنا لا أحتاج عزيزي كما تزعم هي وربما أنت لمساعدة ولا حتي تلك الأفعال وليدة الشفقة، عزيزاي إن كنتما تريدا طريقاً سهلاً إلي، فانسوا ما تعرفون واتركوني أخبركم من جديد واسمعا لي حين يعجبكما الحديث و أوقفاني عندما تنزلق من فمي الترهات، واسخروا من معاناتي عندما أفعل وأعرضوا عن ذكرها حين أحزن وشاجروني واعتذروا بعدها، فطيف لشفقة لا يرضيني ومساعدة مغصوبة لن تفيدني، وربما عزيزي يُقدر لي العودة وحينها ستكون قادراً على رؤية الألوان، وحينها سأريك زرقة سمائنا وخضرة الأشجار وصفرة الرمال و وجوه ساكني بلادي وصور عائلتي وربما حينها ستمتنع عن إرتداء نظارتك وسأتوقف عن موارة هويتي تحت جلدي.

الواحد والعشرون من يناير 2018

النازحة

عزيزتي سارة،

كان الوضع قد بدأ يستقر بالنسبة لي في مجتمعي الجديد بين مخيمات النازحين على الحدود وبدت تلك الخيام البيضاء غيوم في سماء صافية بدا العالم منها رقعة لا نهاية من الفراغ، ولا أعني بالطبع الإستقرار الجسدي فعزيزتي إن كنتِ قد صادفت مخيم فستعرفين أنه أبعد ما يكون عن الراحة ولكني أتكلم عن إستقرار آخر، ذلك الإستقرار الذي يحرك نصف الحياة الباقية للإستمرار، ربما هو أننا في المخيم تشاركنا في فقدنا فشعرنا بالأمان أو الإنتماء الذي يولد بدوره الأمان، مازالت أحزاننا موجودة لا ريب ولكن المخيم ربما سكنها أو دفنها لبعض الوقت، موجودة ولكن ليست ظاهرة، حاولنا البدء من جديد وإعادة الحياة لمسارها الطبيعي ولكن كنا على جانب آخر نعد نفسنا في أي لحظة للعودة وكنا نضع ذلك الإحتمال نصب أعيننا ونعيش من أجله.

أعتذرت أمي لأبي وتصالحا وقد أقول أن شمس أمي بدأت تشرق مرة أخري ليس كلياً ولا بوضوح ولكن شمساً غائمة أفضل من لا شئ، بدت هذة الفترة كبداية لعهد جديد، ساعتها أخدت وقتاً طويل لأدرك أن تلك الفراشات في بطني وذلك الشعور الذي يوقظني باكراً ويجعلني أراقب المكان في سعادة هو الأمل، هو إنتظار شئ جديد هو إنتظار حدوث معجز وإنتظار إنحناء الأقدار، غريب هذا الشعور حقاً وغريبة القوة التي أمدني بها كذلك السجين في حكاية عمي، شعرت أن كل من في المخيم هم سجناء حكايتي لكلٍ منهم نصيبه من العذاب والأمل.

بدأ أبي يتعرف على الناس فهذا فلان وهذا أبو فلان وهذا العم فلان، ويجب أن نزور هذا وزوجة هذا أنجبت لنبارك له ويريد هذا معروفاً

وهذا أسدي لنا واحداً وبدأ ذلك المجتمع الصغير أن يضمنا إليه و يرحب بنا، فصار أبي يجلس إلي رفاقه ويتحدث عن البيت وعن الوطن وعن الحرب وعن الخسارة وعن هذا وهؤلاء وعن ابنه، ولكن هذه المرة تحدث عن المقاتل الشرس الذي يفخر بإنتساب اسمه له، ألم أقل لكِ غريب هذا الشعور، هذا الدافع!

أمي أيضاً كان لها صديقات و لكن أحداً لم يقرب ذلك الجزء المظلم من أمي، كانت لأمي صديقة، هي أم لثلاثة أبناء ولد أكبر وابنتين، جاءت إلى هنا بما حصلت عليه من مال بعد بيع ما تملك من ذهب بعد إختفاء زوجها، في يوم خرج إلى العمل ولم يعد، كان نجاراً، يقول من معه أنه أخبرهم أنه سيعود باكراً للبيت اليوم بعد أن أنهى ما بين يديه من عمل، يقول أحد الباعة أنه مر به فاشترى تفاحاً و موزاً ويقول أحد الجيران أنه شاهده في الشارع المقابل وألقى عليه السلام ولكن عتبة المنزل لم تشهده ذلك اليوم، سأل الناس عليه في المستشفيات بين الجرحى وحتى القتلى وسألوا في أقسام الشرطة ولكن لا أحد يعرف شيئاً أو يقولون هكذا، ظلت هذة السيدة متمسكة بشبح زوجها حتى هدم منزلها ولحسن الحظ كانت في ذلك اليوم عند أحد الأقارب هي وأبنائها تحاول بيع ذهبها لتتكفل بالأطفال وهكذا فرت إلي هنا.

ومن هنا بدأت القصة، قصة ولدها الذي يبلغ من العمر سبعة أعواماً_عزيزتي أغلب القصص هنا حزينة وتحكي أشياء غير مألوفة بطريقة تفطر القلب ولكنها على ذلك تعطي شعوراً بالتحدي وتعطي هذا الأمل، غريب مثل إنبات شجيرة بين الصخور ولكن ما أردت أن أقوله هو أن تجنبي لذكر الأسماء ليس محاولة مني لنسيانها بل هي ملتصقة بي أكاد أجزم أنها تسري في عروقي ولكن هي محاولة بائسة مني لكي لا أجهد عقلك حينما تسمعين ذكر ذلك الاسم فيعيد عقلك

المسكين إسترجاع القصة تلقائياً فتحزني، لهذا عزيزتي الجميع هنا أشخاص بلحمهم وشحمهم وستذكرين مسارتهم وسأذكرها أنا ما دمت حية ولكن لنبقي الأسماء خارج الحكاية_ كان ذلك الصبي قصير القامة أسود الشعر ذو عينين بلون البحر وعمقه، و وجه أبله يضحك ولا يكف عن الضحك، حين تقابلينه لأول مرة تظنين أن خطباً به ولكنك في ثاني مرة ستبحثين عنه لتري تلك الإبتسامات البلهاء وذلك المنطق الذي يهون الحياة، كان ذو السبع سنوات أول صديق لي في ذلك المخيم.

حينما ترينه في الصباح يمشي مع الرجال ذاهباً خارج المخيم للعمل وترينه كعصفور صغير يشد قامته ويفتح صدره ويمشي بثبات كالكبار تبتسمين وربما تضحكين من محاولته البائسة لإستدعاء الكبر، ولكنه لم يطلب ذلك بل فُرض عليه فرضاً، كان يخرج مع الشروق ولا يعود إلا بعد الغروب كحال رجال المخيم، كانت أمه ترثى لحاله ولكنها لا تملك حلاً، ودت لو أبقته في المنزل أمام تلفاز كبير ولكنها لا تملك رفاهية الإختيار، في مدة قصيرة صار أشبه بهيكل عظمي متحرك ولكن هيكل مبتسم ضاحك أبله، كان عندما يعود للمخيم يأكل ثم يخرج ويجلس بجواري، كنا نشاهد النجوم ونصنع منها أشكالاً ونحن نشرب شاياً دافئ أعده أنا قبل أن يأتي، صارت هذه عادتنا وصرت يوماً بعد يوم أنتظر ذلك الصغير ليجلس في جواري.

في يوم زارتنا أمه على غير المتوقع وانتحبت، قالت أنها يمكن أن تذهب للعمل فابنتها أضحت كبيرة بما يكفي لتجالس أختها ويذهب الصغير ليتعلم مع من يذهب من أطفال المخيم، ولكن عندما عرضت على الصغير رفض وعندما أمرته بذلك قال لن أنفذ وتوقفا عن مناقشة هذا الموضوع، أوضحت أمه أن ما ضايقها في الأمر ليس إصرار ابنها على العمل بل عجزها على أن تصر على تعليمه فلا

هي تمتلك المال ولا تقدر علي أن تستغني عن ما يدخله ابنها من المال، بكت حتى ظننا أنها لن تتوقف ولكن أمي إستطاعت أن تهدئ من روعها.

بعدها حينما جلسنا أنا والصبي كدأبنا، سألته "ألا تحب أن تتعلم؟" فضحك وقال أنه يكره الكلام المعقد ولا يفهمه ولا يصدق أنه خُلق لمثل هذا الهراء وأضاف أنه يحمد الله في كل يوم على العمل الذي خلصه من التعليم، فرحتُ عزيزتي، فرحتُ لأني علمت أنه يكذب وفرحت لأنه فعل، في ذلك اليوم شعر هو بالذنب ربما لأنه كذب علي فأطلعني على سرٍ صغير، ذلك السر هو أنه عندما غادر البلاد حمل معه في جيبه كرات صغيرة ملونة كانوا خمس كرات عدد أفراد أسرته، يقول أن رغم عالمه الخالي من الطفولة أو تخليه هو عن عالم الطفولة تبقى تلك الكرات الصغيرة هي الجسر بينهما، أراهم لي وكانوا بمثل لون عينيه كلون البحر لامعين.

بعد ذلك توطدت علاقتنا رغم فارق السن الكبير ولكني شعرت كأنه من واجبي أن أخفف عليه ثقل الحياة، في كل يوم كوبين من الشاي وجلسة هادءة مضحكة، وفي يوم لم يحضر، ظننت أن مكروهاً أصابه ولكنه في اليوم التالي ذهب للعمل ولم يأتي لسهرتنا اليومية، لذا فاجئته بزيارة وسألته عن سبب غيابه يومين متتاليين، فرد بجفاء أنه يحتاج للراحة ليذهب للعمل في اليوم التالي وأنه ليس لديه وقت لمثل هذا الهراء، تضايقت بشدة من وصفه وعدت إلى خيمتي و وحدتي، وأضحيت أعد كوباً واحداً من الشاي بدل اثنين وظللت على هذا الحال قرابة أسبوع، حتى ظهر مرة أخرى وجلس بجواري كعادته، كنت غاضبة منه و فرحة لأنه أتى ولكني اكتفيت بالصمت عتاباً له وشكراً له، وهو كذلك لم ينطق سوى بأن كراته الصغيرة قد ضاعت.

لم أنم ليلتها لا أعلم لما شعرت بذلك الحزن الشديد غير المبرر، وكأنه فقد آخر لأحد من عائلتي، تسائلت عزيزتي أتكون مجرد كرات ملونة قادرة على مثل ذلك الكسر لإنسان لم تكسره ظروف أقوى؟ أيتجسد ذلك الأمل اللعين بصورة كرات؟

أيكون غيابها قادراً على أخذ صديقي الصغير أسبوعاً كاملاً، حينما طلع النهار أخذت بعضاً من صناديق الملابس، كانت صناديق توزع علينا من قبل بعض المنظمات، لا يهمهم جنسك أو سنك فقط خذ تلك الصناديق المليئة بالهراء غير مكترسين بقلة الطعام أو حاجتك له أكثر، أخذت أحدها وذهبت مع أبي لبيعها خارج المخيم، بعتها بثمن بخس ولكنها كفت لقضاء حاجتي، في اليوم عند اجتماعي بالصغير أهديته خمس كرات زرقاء وكرة صفراء.

عزيزتي،

في ذلك اليوم شاهدت إبتسامة بلهاء لم أعهدها من قبل ولن أنساها ما حييت لأنها غمرتني بشعور غريب وسعيد كأني بين أحضان المنزل وكأن من ذهبوا قد مروا بي.

عزيزتي،

في ذلك اليوم كان "هو" يقف بعيداً محدقاً بنا ومن حينها بدأ كل شئ.

التاسع والعشرون من يناير 2018

عزيزتي سارة،

كنت على وشك الزواج، حين كنا في المخيم كنت على وشك الزواج من شاب جمعتني به أرض المخيم، كان ذكياً ومقاوماً ومحباًومحبوباً بين الناس وكان ذو هيئة في البداية هي عادية ولكن مع تكرار النظر لها تستحسنيها حتى أنكِ تجدين ما دونها قبيح، في النهاية أعتقد أنه لو كان الوقت في صفنا لوافقت وأقمنا الزفاف وأعتقد أنه لو كنت وافقت لأتخذت الحياة مساراً آخر ربما هيناً أكثر.

قال أبي لي أن هناك فرصة للتطوع مع من يدرسون الأطفال في المخيمات وأنهم يبحثون عن مثلي لتعليم المزيد من الأطفال، حينها عُقد لساني تفاجئت من طلبه، قولي أنني اعتدت على مسارٍ محددٍ للحياة منتظم وما قاله ذكرني بأن النظم قابله للتغير ولكني على أي حال تحججت بقلة خبرتي، وقال هو أنني يجب أن أعتبره كواجب أكثر منه عمل، ولكني وجدت ملايين الحجج لأرفض لم أكن مستعدة لخوض تلك الحرب، كنت أريد أن أكون على ذلك الجانب الذي يحفز المقاتلين وهو أبعد ما يكون عن القتال، ولكن يوماً بعد يوم ألح أبي، ولأن حياتي فارغة وافقت، وفي أول يومٍ ندمت، أتعلمين ما سبب ذلك الندم وتلك الثورة بداخلي؟

مرآة

نعم عزيزتي مرآة، في أول يوم وددت لو لدينا مرآة أنظر من خلالها إلى ملامحي، لطالما ظننت أن الوجوه والملامح تتأثر بالمكان ولا أعلم لماذا، وطالما حاولت إثبات تلك النظرية، ففي بيت جدتي إختلف شكلي عما كنته في بيتنا أو هكذا ظننت، لذا أردت أن أعرف أيختلف شكلي هنا وبأي درجة، أو ربما هو ذلك الشعور أو الرغبة بالشعور

بالكمال في أول يوم بالعمل ناهيك عن كونه مخيم، أو ربما ببساطة أردت أن أتأكد من إنتظام ملابسي وأنه حينما أنظر للمرآة سأجدني أنا لا نازحة تعيش في مخيم.

ذهبت أول يومٍ رغماً عني، طوال الطريق ظل يكرر أبي كم انا جميلة وأنه ليس علي القلق بسبب مظهري لأنه رائعاً كالعادة ولكن ذلك لم يزدني إلا قلقاً لأن توتري وقلقي إستطاعا أن يظهرا للناس، قابلت العاملين هناك وتعرفت عليهم ومن بينهم كان هو، كانوا جميعهم من المتطوعين من البلد التي كنا فيها،لا تخطو أرجلهم أرض المخيم إلا بضع ساعات في اليوم، في البداية عزيزتي كما قلت لكِ لم أكن أعلم أنه هو ولم أكن لألاحظ.

عندما عهدت الشباب أول مرة كانوا ساحرين مميزين، تعاهدوا على تعليم أطفال رمت بهم الأحداث إلى هنا، ولم أكن أعلم أن ذلك المربع الخشبي ذو المقاعد الصغيرة والرسومات الغير منتظمة وضحكات الأطفال سيكون هو أملي شهور عدة وسأنتظر طلوع شمس جديدة لأذهب إليه، لا لم أكن أعلم ذلك في البداية ولكن ما شعرت به هو شعور غريب لمثل ذلك الموقف، لم يكن الحقد بل كان الغضب، في البداية كان الغضب عزيزتي الغضب لأني رأيتني فيهم عزيزتي كانوا هم مرآتي ذلك اليوم، ورآيتني في تلك المرآة شبح واهن ليس له أقدام ليقف عليها أو حتى يثب لما بعد تلك الأرض، رأيت فتاة فاقدة لكل شئ حتى الأمل الذي يدعونني إليه.

رحبوا بي وكانوا ودودين، بل أكثر من اللازم عزيزتي حتى شعرت أن هناك شخص يقف خلفي ويحمل لافتة مكتوب عليها "شفقة" يظهرها لمن يتحدث لي، كانوا ثلاث أولاد وفتاة وكنت أنا الثانية، بدأ كل منهم يشرح لي كيف يسير العمل في وقت إستراحته حين يتولى الباقون العمل، وهكذا تناوبوا على تقديمي لمثل هذا الروتين حتى

وصلنا إليه، في وقتها عزيزتي لم أدرك شاعرية الموقف ولكن بعدها حين تتصاعد الأحداث وأعود بالذاكرة سأدرك كم أريد لذلك الموقف أن يتكرر، كنا نجلس في مكان درسه وكان الأطفال قد رحلوا وكان هو يشرح لي كم هو عمل إنساني ما سأعمله معهم وأنهم شاكرين له وظل يتحدث في أمور عدة لا أذكرها لأني حينها لم أكن استمع له ولا لأحد من رفاقه على وجه التحديد بل كما قلت لك كان الغضب يطوف بي، ولكنه كسر رحلتي فجأة وأسقطني في الوحل حين سأل"كيف كانت رحلتك إلي هنا؟ أعني المخيم؟"

تعجبت من ذلك السؤال ولكن إجابتي دهشتني أكثر حين قلت بعقلانية "طويلة لأكررها مرتين" حينها أرتبك ودارت عينيه بالمكان يبحث عن ردٍ سريع يخرجه من ذلك المخرج، لذا أخذ في التحدث عن كارثية الموقف في بلادي وحاول وضع بعض النظريات لتفسيره، ربما تحدث لخمس أو عشر دقائق وكان يحاول أن يثبت وجهة نظره ليس بكلامه فقط بل بيديه أيضاً _تعرفين كم هي عدد النظريات التي يكونها من لم يمروا بالموقف بل شاهدوه من بعيد؟_وبعدها توقف ونظر إلي وكأنه ينتظر مني التعليق على ما قال فقلت" صحيح، فغريب أن كل صبي قادر على قتل حشرة ولكن علماء الأرض جيمعاً غير قادرين على أن يخلقوا واحدة"

أتذكر تلك الكلمات لأنه يتذكرها ولأنها أعتقد أول ما تشاركناه حينها عزيزتي سألني إن كنت أعرف أن قائل هذة العبارة هو أرثر شوبنهار، فأجبته بنعم وأن علي الإنصراف، أعتقد أن حينها وصله ذلك الشعور الكامن داخلي بالغضب والثورة وأعتقد أنه ربما أيضاً وصله إلى أي مدى هي كارثية الموقف.

مثلت المرض في الخيمة يومين ولازمت الفراش دون أنفي يومين لكي لا أذهب لهذا المكان مرة أخرى، وفي نهاية اليوم الثاني خرجت

لمشاهدة النجوم مع صديقي الصغير ففي النهاية هو الوحيد الذي أستطيع مشاركته لهذا الحدث، أعلم أنه لن يفهم سبب ذلك المطر في رأسي ولن يستطيع إيقافه ولكنه على الأقل سيستمع دون أن يستخف بذلك الشعور، وفي اليوم الثالث لم أستطع إكمال تلك التمثيلية لأنه زارني في الخيمة، ليتك ترين أمي حينها وهي تسارع لترتيب الخيمة وإيقاظي وهي مبتسمة متحمسة بأسارير مزهرة، قابلته أمام الخيمة بملابس غير متناسقة وحجاب غير منتظم وأضطررت أن أسعل أمامه مرتين لأؤكد سبب غيابي، أما عنه فوضح أن سبب حضوره هو أنه كان يمر على الناس في خيامهم محاولاً إقناعهم بإحضار أطفالهم.

وحدك؟

هل تعلمين عزيزتي أن قبضة يده تُشد عندما يكذب، تغلق يده كمن أمسك على كذبة ولا يريد أن يضيعها، بعدها قال أنه مر بي ليرى إن كان بإمكاني المساعدة.

زُرنا عدد لا بأس به من الناس ولكن قل ما وافق أحدهم، فأغلب الأطفال هنا لا يعرفون حياة غير حياة المخيم القاسية، لم يعتادوا على الحصول على الأشياء بسهولة ولم يعتادوا على أن يساعدهم أحد وقد نسوا كيف يكون التعليم والذهاب إلى المدرسة صباحاً، ومهمتنا كانت صعبة، مهمتنا كانت خلق الأحلام في رؤوس لم تعرف سوى الكوابيس، مهمتنا أن نعدهم بحياة كريمة بعد أن سُلبت حياتهم الكريمة كلمح البصر، مهمتنا أن نبني مدرسة لا تهدها صواريخ الطائرات، وأن نؤكد لهم أن قلماً خشبياً صغيراً سيسد فوهة البندقية، ومن يصدقون؟

شاب لم يعهد حياتهم ولا يعرف لها شكلاً أم فتاة صامتة لا يعرف الأمل مكان في عينيها، كانوا على حق، صدقوا أعينهم، صدقوا ما

عاشوا وعاشوا لما صدقوا، وفعلت أنا، فبعد عدة زيارة لأيام متتالية كنت على وشك الإعتذار والإنسحاب من تلك المهمة التي لا أملك سلاحاً لخوضها والتي تُسقطني حجج العدو فيها، قلت لهم ماذا تطلبون منهم؟ أن يتركوا أطفالهم الذين يعملون أو الذين يعتنون بباقي العائلة ليذهبوا للمدرسة، لماذا ليكتبوا حرفاً بدلا من أن يحافظوا علي سير الحياة، أنتم تعلمون أن كل أب وكل أم ودوا لو فعلوا ولكنهم لا يستطيعون وبتلك الزيارات أنتم لا تسببون سوى الحسرات، قلت كل ذلك في شجار نشب بيني وبينهم، دُهشوا من موقفي فأنا الصامتة الوديعة ولكن كلامهم عن من بالخيام وكأنهم محبون للوحل أثار غضبي ولم أستطع أن أكتم حديثاً لذا ألقيت كلماتي ورحلت.

بعد يوم سيظهر هو مرة أخرى أمام خيمتي بقبضة يد مشدودة وبتفاؤله المعهود وسيطلب مني أخر زيارة سنقوم بها وستكون تلك أول واحدة أفعلها بشغف، سنذهب يومها لخيمة "أم فلان" ودعي قصتنا تبدأ.

عزيزتي سارة،

هي سيدة وزوجها وحدهما بين الخيمة الضئيلة، هي سيدة في عقدها الخامس من العمر، سمينة الجسد مبتسمة الوجه على جبينها وداعة وهدوء، في البداية عندما تزوجت تقول أنها كانت فتاة غير جيدة في أي شئ ولا تعرف كيف تدبرت أمرها، وتقول أن زوجها كان صبوراً محباً متحملاً لأكلات غير صالحة للأكل، تقول لم يكن كل شئ بأفضل حال ولكنه كان على ما يرام، حتى تأخر بها الحمل وظنت أنها لن ترزق بطفل أبداً، إنتظرت طويلاً ودعت كثيراً حتى رزقت ب"فلان" كان كل شئ عادياً عزيزتي حتى إضطربت الأوضاع في البلاد وبدأت الطائرات تحوم فوق سمائنا، طلبت من ابنها أن يتوقف عن الذهاب إلى المدرسة حتى يهدأ الوضع، ولكنه أصر على الذهاب،

تقول أنه كما لو كان يرى طريق المدرسة يمتد ليرسم له مستقبلاً آخر بدون طائرات، أو كأن ما يفعله أشعره أنه قادر على وقف تحليقها، كان يقاتل بطريقته الخاصة، وفي كل يوم كانت تودعه وتدعو بأن يعود سالماً، حتى ذلك اليوم عندما لم يعد.

تقول أنها لو علمته ذلك اليوم غير عائد للبيت لما أوقفته عن الذهاب ولكنها كانت لتعتصره بين يديها وتخبره كم هي فخورة به وتحبه.

علمتُ حينها أنه يزور تلك السيدة في المخيم ليعلمها، حملت هي الراية بعد ولدها وأرادت أن تحسن إليه بطريقته.

بعدها عزيزتي إتفقت أنا وهو على أمرين أولهما أن هؤلاء الأطفال يجب أن يتعلموا وثانيهما أن علينا إيجاد طريقة نحمل بها الأعباء عن أسرهم.

الثالث من فبراير 2018

عزيزتي سارة،

أتعلمين ما يقتلني حقاً في مراسلتك؟

الوقت، الوقت الذي تستغرقه الرسائل في السفر إلى مكان آخر وذلك البطء النسبي الذي لا يناسب فرقعة الأفكار في رأسي، لم أكن أعلم أنني سأدمن كتابة الرسائل بهذا الشكل، فقد صارت محطة أمر بها كل يوم وإن لم أفعل فلن توصلني سيارتي إلى بيتي وسأسظل عالقة طوال الطريق، الكتابة لكِ عزيزتي أصبحت شيئاً ضرورياً ولكن مع ذلك فإنه ممتع، أتسائل لو كنا نتبادل الرسائل الهاتفية لكان الأمر بمثل تلك القدسية التي تعطيها له الأوراق؟ ربما هو شئ ليس فقط في الكلمات بل في الطريقة التي نكتبها بها وأعوجاج الحرف بين الآخرين ربما هي رائحة اليد العالقة في الورقة أو هو إمتلاك شئ لك، صُنع لك، وكُتب لك وأُرسل إلى مكانه الطبيعي بين يديك، ولكنه كان سيحل لنا مشكلة الوقت، في كل يوم أذهب للبريد لأودع رسالتي يتعجب العاملين مني ويأخذون الرسالة برغبة ملحة في أن ينقرض أنا ومن يزورهم فيتسني لهم إغلاق المكان، وأخاف ذلك اليوم عزيزتي، أخاف اليوم الذي لن أستطيع الكتابة لكِ فيه لأي سبب كان، يخيل إلي أنني لن أنثني عن ذلك الفعل ما دمت حية وأنهم حتى لو أغلقوا كل المكاتب البريدة بأنني سأربي زاجلاً يحمل لكِ تلك الرسالة.

عزيزتي لو تعلمين كم ووددت لو خلقت حماماً زاجلاً، ما يجعله متربعاً على عرش الطيور أنه مهما أُخرج سيعود، سيعود للوطن، هل تسائلتي كيف؟ كيف يتبين ذلك الطير مكانه بين الطرق، لا يهم لكنه يفعل.

لذا عزيزتي أظن أنني سأموت قبل أن تتوقف رسائلي إليك.

أتسائل ما الذي تفعلينه حالياً وهل إعتدتي على المكان بعد كل تلك السنين أم أن شيئاً ما ليس في مكانه، أتخيلك عزيزتي بعد تلك السنوات قد إكتسبت لهجة مغايرة وتعرفتي على بعض الأشخاص ربما لن تجمعك بهم جميعاً صداقة قوية ولكن هناك علاقة طيبة، ربما تدرسين الطب وربما لا ولكني أعلمك سعيدة هناك واتمنى لكِ دوام ذلك، لطالما شغلني تباينا هذا وتلك الصداقة الغريبة التي تجمعنا، فلا نتفق علي شئ أبداً ولا حتي نتعاطى الحياة بنفس الطريقة ولكن أعلمك وحدك تنظمين حبات أفكاري وترينها كما أراها.

عزيزتي هل أخبرتك عن طبيب المخيم؟

كانت خيمته في أقصى أطراف المخيم، والعجيب في أمر المخيمات هو ذلك التشابه الطبقي والمساواة الغير عادلة أحياناً، فلا تفرقين بين خيمة وخيمة كلها متشابه، لا يتغير لونها أو شكلها ولا تظهر عليها الإختلافات الطبقية الارستقراطية التي تخبرك ولو القليل عما في داخله وتجعل الطريقة الوحيدة لإصدار حكمٍ هي الطرق على الباب والتحدث وجهاً لوجه، لذا عزيزتي لم نكن لنفرق بين من حولنا بخيامهم ولم نكن لنعرف غلظتهم أو لين قلوبهم من طرقة على باب خشبي بل كنا نتحدث ونراقب، كلنا في الهم سواسية، لذا عزيزتي فإن ذلك الطبيب لم يكن طبيباً إلا حين عالج أحد المرضى في المخيم، كان في خيمة متجاورة أحدهم والذي قد أصيب بعلة لا نعلم ما هي، لم تتداول النساء ذلك ولكن ما تداولته هو ظهور ذلك البطل المغوار الذي ظهر بين أسدال الظلام وأبعد الألم عن خيمة المريض ورفض أن يأخذ المال ثم عاد إلي خيمته، دون تباهي أو تفاخر أو حتى ذكر الحادث في اليوم الثاني، عندما علمتُ ذلك الأمر أردت حقاً أن أقطع الأميال لأري وجهه، لا لشئ بل لإكمال تلك المسرحية في رأسي، ولكن لم أذهب بل هو أتى إلينا في صباح ذلك اليوم الذي مرضت فيه

أمي، شعرت بألم في أحشائها وكان لا يحتمل وحينها لم تستطع أمي أن تخطو خطوة خارجاً، لذا قام أحد الجيران بإستدعاءه، ورغم أني لا أصدق في تلك الأساطير التي تداولتها نسوة المخيم ولكن حقاً ربما بيديه بركة، فقامت أمي بعد وكعتها بصحة جيدة، كان ذلك الطبيب طويل القامة ونحيف الجسد لا أعني تلك النحافة العادية بل ربما نحافة نتجت عن سوء التغذية وكان لون شعره بين الأسود والأبيض ولم يكن يرتدي نظارة كما أعتقد ولا يحمل سوى سماعته، لاحقاً تصادق معه أبي كما يفعل مع كل من يقابله، فهو يعرف فلان الذي يعرف فلان وفلان صديقه.

هذا الطبيب عزيزتي لم يتزوج ويعيش هو و والدته المسنة في خيمة واحدة وعلى ثرثرته الدائمة إلا أنه لا يتكلم عن حياته، تركها مع بقية أدواته ربما، عرفنا لاحقاً أنه لم ينسى أن يحضر معه شهادته الجامعية وأثار ذلك شكوك من في المخيم ظننا به جُنة، فمن يمتلك شهادة جامعية ولا يخرج من هنا ويبحث عن عمل ويطلب حياة آدمية؟ ولكن بعد أيام هدأت الإشاعات وإعتدناه بيننا ولنقل أنه كان له قلباً يتسع للجميع، كان في الصباح يذهب مع من يذهبوا لأعمالهم ولكنه حين يعود ليلاً لا يستريح بل يطبب من في المخيم من مرضى ويرعى والدته.

في يومٍ شهدنا شجاراً كبيراً بينه وبين رجل من المخيم لا نعرف سبب الشجار ولكنه كان كبيراً وهب الناس للفصل بينهم، ودامت القطيعة بينهم طويلاً ولكن حين مرض ابن ذلك الرجل لم يتردد الطبيب في المساعدة وبعدها عاد لقطيعته مرة أخرى، لم يكن لزاماً عليه أن يرعى من في المخيم دون أجر ولكنه فعل دون تردد وبوجه مبتسم، كانت تقول أمي أنه لا يعرف المرض فقط بل يشعر به كذلك.

حين تعرفت عليه كنا في طريقنا إلى الحمامات، عزيزتي لا أعرف إن كنت تعرفين ذلك ولكن كانت هناك حمامات بعيدة عن خيامنا كنا نذهب إليها حين الحاجة وقد كانت تلك الحاجة قليلة، نظراً لبعد المكان فكنا وبقدرة الإنسان على التكيف نقلل من عدد مرات ذهابنا، وفي مرة كنا أنا وأمي في تلك المرة في طريقنا خلف طابور ننتظر الدخول، وقد وجدناه آتٍ من بعيد يحمل على ظهره والدته المسنة، كان يتصبب عرقاً وعضلات قدمه تخونه فتنزلق قدمه بين الفنية والأخرى ولكنه عافر على الوصول، ثم أنزل والدته وأجلسها على إحدى الصخور، عندما رآنا تقدم خطوتين باتجاه أمي وسأل علينا وعلى صحتها وعلى حال أبي، إنها عادة متعارف عليها حتي لو أمام الحمام، ثم بخجل لم أرى مثله في حياتي طلب من أمي مساعدة والدته على الدخول فهو لا يستطيع الدخول، أبعدت أمي عنه الخجل و وافقت وأثنت عليه وسلمت على والدته، فرحبت هى بنا وأخذت تدعو لأمي وتدعو لي، في طريقنا للعودة عزيزتي لم أكن أسمع أي صوت حولي من كثرة ما طار في رأسي من أفكار وأسئلة، كانت عيني مصوبة نحوه بظهره المنحني و والدته وأتسائل ما قصته، أهي طبيعته أن يفعل كل ذلك، أهو حبه لوالدته أهو حب خالص لله أهو خير إعتاد على فعله، تكررت مقابلتنا بعد ذلك أمام الحمام وصارت أمي هي من تطلب منه المساعدة لتزيح عنه الحرج وذلك وطد علاقته بنا.

كانت المأساة حينما مرضت والدته، خيم الحزن علي المخيم بأكمله وصار الناس يتسارعون للإعتناء بها في غيابه حين يعمل، ولكن ذلك لم يخفف عنه، بل كان أغلب الوقت مضطرباً متوتراً، حينما طلب الدواء من المنظمة _وهنا أوضح أنه لم يكن يقبل أي عطايا ولا هدايا وكان ذلك بمثل إهانة عظيمة له _اعتذروا بعدم توفره وطلبوا منه كتابة طلب، عزيزتي ذلك الرجل الذي إعتاد على حمل والدته وحمل

ما يثقل الناس قيده كتابة طلب على ورقة وأسرته كتابة الكلمات، ولكننا لم نعتد على إستسلامه، خرج بحثاً عن الدواء خارج المخيم، عزيزتي غاب هو يومين فارقتنا أمه في صباح الثاني، أعتقد أنه لو كان هنا لما إستطاعت أمه أن تفارق الدنيا فكان ذلك اللطف الخفي، لا تعلمين يومها كم بكى ذلك الطبيب حينما رأى تجمع النساء على خيمته، بكي عزيزتي وانتحب كطفل في الخامسة من عمره، انتحب طويلاً.

أتعلمين ما الذي فعله في اليوم الثاني؟

وهب الدواء الذي كان قد اشتراه للمنظمة، الطبيب الذي لم يطبب والدته لم يتغير شئ في حياته سوى أنه أصبح منحنياً بلا سبب، دون جسد يحمله علي ظهره.

بعد عدة أيام زار المخيم زائر، ولا أعني ذلك النوع من الزوار الذين يرتدون ملابس منمقة ويتحدثون بلغة الفرنج، بل هذا النوع الذي يعرفنا ونعرفه، الذي يشبه لوننا لونه ولكن ببدلة عسكرية وبندقية، ذلك النوع الذي جعلنا نأتي إلى هنا في الأصل، ذلك النوع الذي ربما كان يقود طائرة محلقة في سمائنا وتسقط علينا ما يُذهب الحياة، أتى فرداً واحداً ولكن دون بدلة عسكرية ودون سلاح، ظنناه في البداية شخصاً عادياً، زائراً عادياً، لم نكن نعلم أن نيته ستفجر المفاجأة الأخيرة وأن هويته سيدوي صوت فرقعتها، في البداية سأل عن بيت، اعذريني، عن خيمة الطبيب وذهب، وحينما وصل تعرف عليه أحد رجال المخيم وبدأ سيل من السباب والدعاء واللعن، وتجمع الرجال للفصل حتى خرج الطبيب وأخذ زائره بعيداً.

قضيا ليلتهما أمام قبر والدته أو بالأصح عزيزتي والدتهما، وأخيراً كُشف ذلك السر وذلك السبب، كان عزيزتي الذنب، كان الذنب الذي يحرك الطبيب، يشعر بالذنب تجاهنا.

تعانقا قبل أن يذهب ثم رحل، سار الاثنين في اتجاهين متعاكسين، بعدين كل البعد، تُرى هل اختار كل منهما ذلك الطريق أم أُجبرا عليه عزيزتي، غريبة تلك النقطة التي يتلاقى عندها العالمان المختلفان، غريب ذلك الرحم الذي جمع ما لو إجتمع العالم على أن يوفقه ما عرف.

غريب ذلك وغريبة الحياة بداخلة كما بخارجه والأغرب هو نقطة تلاقيهما.

العاشر من فبراير 2018

عزيزتي سارة،

كيف حالك؟ أتمنى بالطبع أن يكون بخير ولكني حقاً أريد منك أن تكتبي لي كيف هو حالك، وإلى أين قادتك الحياة وكيف هي معركتك وأتمنى حق التمني عزيزتي ألا نتشارك نفس الحظ كما فعلنا دائماً.

هل أخبرتك اليوم أنني خرجت مع يمنى وبمحض إرادتي، دعتنا والدتها للغداء أنا والصغير، فتغيبتُ عن العمل ليوم وجهزت الصغير وتجهزت ثم ذهبنا، بالطبع أخذ الأمر مني أكثر من كي الملابس وتجهيزها، كانت علتي ومازالت التفكيركعمي ، فكنت أبحث عن سبب تلك الدعوة، ثم أخذت أجرب ملابسي مرات فمرات مع أنها لم تتغير ولم يتغير شكل جسدي بين الساعة والأخرى ولكنه توتر ألقي علي، حتى أنني فكرتُ في الإعتذار في آخر ساعة ولكني فكرت أن يمنى لا تستحق مني ذلك، لا يجب علي الهروب بهذا الشكل المتكرر من الناس.

أتعلمين أنه حينما رفضت الزواج به حين كنا بالمخيم، وصفني بالهاربة، قالها وقد بدت عروق رقبته وبرزت عينيه من الأمام ولولا أننا كنا بعيدين عن عيون الناس لكانت فضيحة لا تنسي، قال عزيزتي كأنني اسكته لسنوات وأهنته لسنوات وأُتيحت له الفرصة للتكلم بضع دقائق، وكأنه يُلقي بتلك الصخرة التي وضعتها على صدره في وجهي، كأنها ثورة بركان لا يثور إلا مرة كل مائة عام فجاءت ثورته عنيفة وتهتز لها الأرض، ألقى بحممه علي عزيزتي دون أن يفكر في أثرها، فعلٌ واحد غير منطقي رد على كل أفعالي المنطقية، قال لي أنني هاربة أحب التملص ولا أمتلك جرأة المواجهة، الهرب من العمل والهرب من الزواج والهرب من الحياة، أضاف أنه ربما ينتهي ذلك

العالم وأنا جالسة مع صديقي الصغير تحت النجوم لا أتكلم ولا أكلم أحد وأضاف أنه لسوء حظه فإن كل تلك الأشياء الذي أتهرب منها وكل تلك الأشياء التي لم أفعلها هي ما جعلته يلحظ وجودي بالأصل.

قال الكثير من الأشياء حينها ولم يسمح لي بقول الكثير، كنا كذلك طوال فترة تعارفنا يقول الكثير ولا أقول شيئاً ثم يأتي معاتباً لي لأنه تعلق.

على أي حال حملت أشيائي وذهبت متجهة لبيت يمني، كان الطريق طويلاً من منزلي لمنزلها، وفي البداية تهت وارتبكت وتشابهت العناوين ولكني في النهاية وصلت إلى بيتها، وقفت أمام بابها أهندم ملابسي وملابس الصغير فأتقدم خطوة وأتراجع اثنتين وكأنها عزيزتي المرة الأولى للتعامل مع البشر، ولكني هذه المرة كنت عازمة على عدم الهرب فطرقت بابهم وألقيت السلام فرحبوا فجلسنا فتكلمنا عن المدينة وعن أضوائها و شوارعها المبهجة وتكلمنا عن الأطعمة وكيفية طهوها وعن الطقس ومواسم السنة وأحبها إلينا وعن ما يثير السخرية وعن سقطاتنا المضحكة وعن الوطن وعن الذكريات أما عن الأخيرين فتكلموا هم وانا استمعت كدأبي حين تُفتح مثل تلك المواضيع، هل أقفز عزيزتي؟

هل أقفز من الان إلى الغد، هل هو التجاهل أم التناسي، أيجب أن أتخذ من الان والغد حياة وأنسى ما كان، هل فقد ذاكرتي هو الحل، هل حينما أستيقظ في يوم وأنظر لما حولي بعين المرة الأولي لكل شئ سيكون هو الحل، أعتقد أنه لو حدث لأستيقظت أبحث عني وأبحث عما يخصني في هذا العالم لأنه حينها سيخبرني ولو قليلاً عني وحينها عزيزتي حينما لا أجد ما يخصني أجلس في زاويتي من الحياة كما كنت وكما أنا وكما سأكون دائماً فما الحل؟

كيف أتخلص من أغلال الذاكرة، لو فتحت تلك العلبة المقفولة وخرج ذبابها لتضايقوا وتضايقت وربما سأكسر ذلك الجسر الذي يمكن أن يُبنى بيني وبينهم.

ببساطة عزيزتي لم أكن أريد ربطهم بما مضي، لكي لا تفتح رؤيتهم أبواب الذاكرة فأكرهم وابتعد.

تناولنا الغداء كانوا مثل تلك العائلة التلفزيونية المرتبة، ينظر بعضهم إلى بعض بكل الحب يضحكون بصوت منخفض مجاملة لنكتة قالها أحدهم ويستمعون لكلام أحدهم بإهتمام وكان هناك ذلك الصوت في رأسي يسأل متي ستكسر تلك الأقنعة ويُظهرون ذلك الجانب الحقيقي منهم القابل للإعجاب أكثر، ذلك الجانب الذي تعلو فيه أصواتهم على نكتة حقيقية أو حين يصرخ أحدهم في وجه الآخر لقوله شئ ضايقه أو ربما ذلك التجاهل حينما يتحدث أحدهم بلا جدوى، متى ستظهر كل تلك الأشياء الغير مكترثة الواثقة بأنها ستُلقى على قلب محب فيسامح، ولكنهم على أي حال رحبوا بي أكثر، أتعلمين اعتقد أنهم يفعلون ذلك عندما أرتبك، يرحبون بي وبإرتباكي، كان ذلك ودوداً.

بعدها عرضت علي يمنى أن أترك الصبي مع والدتها، ونذهب نحن للخروج، إحتجت لذلك حقاً عزيزتي فقبلت وخرجنا.

أحياناً عزيزتي بل كثيراً من الوقت أظن أن ما يجمعني مع الناس هو الشفقة فانظري لمثل تلك العلاقة بيني وبين يمنى الذي لا يجمعها أي اهتمامات مشتركة ولا أي تشابه في الخلائل ولا حتى نشعر بمثل ذلك الإنجذاب الغير مبرر رغم اختلافاتنا، فيمني تلك الفتاة العربية الأجنبية التي تدرس في أحد الجامعات التي يثير عرقها العربي فضول و ودية من تقابلهم في الجامعة، فيتحدثون وتتحدث معهم وتخرج وتتعرف إليهم وتُظهر لهم هويتها فينبهرون كما لو كانوا

يشاهدون شهاباً لامعاً في السماء، تتكلم عن الأرض والأصل رغم تعلقها بأرضٍ غير الأرض ويعجب الناس ويدافعون ويساندون، تتكلم عن القضية وعن الخسارة ولكنها رحلت قبل بدء الرحلة.

وانا هنا الهاربة.

كانت هي عزيزتي مثال لإندماج حضارتين طغت الثانية على الأولى وسبب تمسكها بالأولى هو أنها تُكسبها مكانة بين سكان الحضارة الثانية، تتكلم عن الأولى لا لأنها تحبها أو لأنها تتخل عروقها كما تظن بل لأنها لم تجد مكان في الثانية فوقفت على ذلك الخط بين الاثنين وأشارت لها فهلل الناس من كلا الاتجاهين.

علي الجانب الآخر أقف أنا، بالكاد ألحق ركب أي حضارة، أعمل كي أكسب تذكرتي على قطار الحياة وأخفي أصولي لأن من حولي لا يرحبون بها، حتى أصدقاء يمنى لن يرحبوا بها فهي لا تُظهر ذلك الجانب الذي يظهر في يمنى ذلك الجانب المحب السعيد الذي إنصهرت فيه حضارات وغرائب عالم لا يعرفون عنه شئ، بل إن أصلي وهويتي تُظهر ذلك الجانب المعاني المعذب المقرح، جانب يُظهر أسوأ ما قد يكون عليه الناس لو وددت القول، ولو تحدثت أنا عن القضية لبدت القضية مختلفة، لبدت قضية تخلف وغجرية وجهل تفشى بدل قضية حرب بين الخير والشر والتي تكلل بالنهاية بفوز الخير وهو شئ يشكك فيه جانبي.

إن هويتها كانت سبب الوصل وهويتي رغم تطابقهما هي سبب الإنقطاع، عزيزتي ربما هو سبب عدم تحدثي وتحدثهم، هو سبب خفض رأسي ورفعهم إياه، أو ربما هو الحقد عزيزتي ببساطة.

تلك هي خطيئتي ومن كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر.

اختارت يمنى أن نذهب للسينما و وافقت ثم اختارت هي نوع الفيلم وشاهدتُ، أتعلمين تلك الخلطة السرية لأفلام الحب، البطل والبطلة المنحوسان اللذان يفترقا لأياً كانت الأسباب المهم أن يفترقا لكي تستحق قصتهم أن تكتب، خلاف بين الأهل أو المال أو السفر أو حتى زوج أو زوجة أو المرض، كلها قابله للتتغير و التغلب عليها سوى المرض فيكون حظ البطل والبطلة هي تلك الليالي البسيطة التي يحظون بها، كان ذلك بالنسبة لي نمطياً وقابلاً للتوقع.

ما لم أتوقعه هو أن يكون الغضب نهاية للقصة، أو الحقد اختاري ما تشائين لأنه حتى أنا لم أعرف أن أحدد أي السببين كان أصدق، حينما كنت في المخيم نأيت عن كل الناس، أردت أن يتوقف العالم للحظة لأري مكاني منه وفيه ثم أقرر ماذا أفعل، سرعة الحياة في المخيم فاجأتني على عكس نمط الحياة حين كنا في البيت البطئ القاتل_حقاً قاتل_ لذا عندما ظهر لم أبدي إهتماماً وحين أصر على الظهور أردت ألا أبدي إهتماماً، فلا يخوض القادة حرباً جديدة دون مراجعة الخسائر والغنائم ولم تكن حربي منتصرة حتى أخوض غيرها، الحق عزيزتي أنني لا أفهم كل الأمر من البداية وحتى النهاية ولكن ما أفهمه هو موقفي وسبب رفضي وسبب هروبي أما عن سبب إقباله وسبب تعلقه فهو لغز حله ينفرني أكثر من القبول.

في يوم لا يختلف عما قبله على الأقل بالنسبة لي، وجدته قادماً من بعيد يمشي مجاوراً لأبي، يتكلم معه ويبتسم ثم عند مسافة معينة قبل خيمتنا سلم على أبي ورحل ولكن ليس قبل أن يرسل لي تلك الإبتسامة التي كان غرضها أبعد من السلام، تلك الإبتسامة التي تسلم الراية لشخص آخر وترجوه بألا يضيعها ويرتكب حماقات ، حينما إقترب أبي تخطاني ودلف إلى الخيمة أما أنا فراقبته يرحل مبتعداً، ولا أنكر أن فكرة عرض الزواج خطرت على بالي، قولي سببها تلك النظرات

التي يلقيها بين الحين و الآخر أو تلك التي ينسى فيها أنه بين الناس أو تحدثه المسترسل أمامي وتوتره عندما أتحدث أو ربما تلك الغريزة التي جعلتني أنفر منه وأبتعد عن طريقه في كل مرة نتقابل وتلك التي تجعلني أهرب من أي لقاء، حينما دخلت إلى الخيمة كان أبي قد أخبر أمي بما حدث وفي تلك اللحظة خانتني غريزتي على معرفة ذلك الشبح الذي إعترى وجهيهما وحتى هما أظن أنهما لم يعرفا أيضاً.

أخذت أمي ثلاث ليالي تحدثني عن الأمر وعنه وعن المزايا التي أحصل عليها بذلك الزواج وأفضلها هو الخروج من ذلك المخيم ثم تضيف "أن الولد يحبك" ثم _وأعتقد أن تلك ذلة لسان من أمي_ إعترفت لي أنه من إقترح على والدي العمل.

غضبت حينها منه ومن أبي، ربما كنت وافقت لو لم تقل أمي لي ذلك ولو لم تحدث تبعات ذلك الحديث، وشعرت حينها بقلة الحيلة بمثل الدمية ذات الخيوط التي حركها هو كيف يشاء ليعرف ما يريد، حينما رفضت أول مرة، لم تخبر أمي أبي بذلك بل أتت بإحدي صديقاتها وهي امرأة مسنة عرفت بالجدة بين أبناء المخيم، كانت تعرف أسرار المخيم ولكنها لا تتحدث بها، تدخل بين الناس حكماً وشاهداً ولكن إن انتهي الموضوع فهي لا تعرف عنه شيئاً، صماء بكماء عمياء إذا سُئلت في غير شأنها، لذا كانت النسوة يحضرنها لحكمتها ولكونها ذلك الإنسان الذي يستمع والجماد حين يُسأل، لا أعلم لما أحضرتها أمي، لتقنعني أم لتهون على أمي لا أعرف.

ولكن الجدة يا سارة، زادت الطين بله، إسترسلت في الحديث المقنع والحكايا، فتقول رأيها وتبرهن عليه بحكاية خالية من الأسماء و الوصف فتسقط ذلك الذنب من عليها ولا يبقي بها سوى العبرة، وأقول أنني كدت أن أوافق وكاد يتم الأمر، ولكنها قالت ما أفسد خطتها وأشعل غضبي واثار تلك الخطيئة، قالت _ليس بحدة ألفاظي طبعاً_

أنني طريدة أتاها وطن ومن الغباء ألا أقبل، ولكني لم أكن طريدة عزيزتي، لذا لم أقبل بهذا الوطن وهذه المرة أخبرت انا أبي بذلك.

إذا سألتني عن أسباب رفضي له سأعددها لكِ بمنطقية خالية من الأساس، فحين تسمعين ما أقول تجدين نفسك بين جانبين إما أن تُقنعي نفسك بما أقول وتتخذينه عذراً وتدافعين عني، وإما أن تنظري له بعين المنطق عزيزتي الذي إعتدنا أنا وانتي على إعتناقه فتعرفين أنني ارتكبت خطأ ولكني أعلم في أي صف ستقفين ، لذا أخبرك بالأمر، السبب الأول وقد عرفتيه و هو الغضب، أما الثاني فهو الخوف.

أسبوع قبل تلك الحادثة كنت قد تعرفت إلى فتاة في المخيم، كان ذلك بمثابة نذير الشئوم لصديقنا، كنت قد قابلتها عند طابور إستلام الغذاء الذي يوزعه بعض المتطوعين والذي أصبح سمة أساسية للمخيمات كأشياء آخرى لا داعي لذكرها، كان يوماً طويلاً ومشمساً تكدس الناس فيه لذا قد كان وقتاً مناسباً لتبادل أطراف الحديث ليس لأنه الوقت المناسب بل لأنه الحل الوحيد ، كانت جميلة الملامح ترتاحين للنظر في وجهها ويبدو عليها اللين والضعف وعلى عكسي كانت تلك الفتاة تجيد الكلام عن ما عانته ولا تجد في ذلك حرج بل وكأنها تسطر ملامح مقاومتها وتنشرها بين الناس لا إستجداء لتعاطفهم بل لأنهم يجب أن يتخذوا من موقفها عبرة، بدأ الحديث عندما لعنت المخيم واليوم التي جاءت فيه إلى هنا والذي أتى بها إلى هنا والذي بدا كلام غريباً يخرج من تلك الرقيقة، وقد هدأت من روعها وطمأنتها بأن ذلك الطابور الطويل سينتهي عما قريب، تلك الكلمات الصغيرة لابد أنني قلتها بوقع مؤثر جعلها تسترسل في ذلك الحديث معي، أخبرتني عن قريتها وعن بيتها وعما تمتلكه هناك وأخبرتني أن معاناتها بدأت حينما إعتدي بعض حاملي السلاح على والداها فأفقدوه

قدرته على المشي، تقول "عاش والدي ليحميني وعندما فقد القدرة علي ذلك قرر المغادرة" وأتيا إلى هنا، وحينما بدأ يستقر بهم الحال في المخيم، سرعان ما تقدم لها أحد ساكني البلد وطلب الزواج منها، فرحت وفرح والدها وظنا أن المعجزة أتت وأن القدر يبتسم وأن أيام ذلك المخيم قد ولت وأن وطناً جديداً يرحب بها وربما لشجرتها أن تضرب بجذورها في أرض جديدة فتنبت مرة أخرى فقبلت و وافق والدها.

تزوجت عزيزتي لشهر واحد ثم طُلقت، وعادت إلى المخيم التي ظنت أنها لن تطئه مجدداً.

انا وانتي نعلم أنه لم يكن زواج ولم يكن سوى تلاعب بأحلام تلك الفتاة، سراباً لم تمسك به أبداً وأوقع بها في الوحل.

عزيزتي، كنت متأكدة من سلامة نيته ومتأكدة أن يسار تلك الفتاة يختلف عن يميني ولكني زينت لنفسي ذلك الإحتمال لأبرر رفضي وأقولها لكِ صراحة، رسمت أنا فيه الإحتمال الأسوأ لأنني لم أصدق أن احتمالاً جيد قد يحدث.

أما عن سببي الثالث فهو الحقد، الحقد الذي جعلني أكره قدرته على الإختيار وعدم قدرتي لذا ربما ولو بجزء صغير أردت أن أحرمه من تلك الرفاهية.

حينها عزيزتي تألمت، شعرت حينها بأنني إحتجت أن أكون في البيت، في شارعنا وبين من أعرفهم ويعرفونني، أردت أن أكون تلك الفتاة التي رسمتها لنفسي قبلاً والتي أستحق أن أكون، أردته أن يأتيني هناك وليس هنا ربما عزيزتي حينها كنت سأقبل.

غضبت منه وممن في المخيم ومن الناس أجمعين.

و حينما قرر أبي المغادرة من المخيم والهروب، رأيته لأخر مرة في حياتي، بدا أكثر نحافة مما كان عليه وبدوت أكثر حزناً مما كنت عليه.

ربما عزيزتي، تلك هي الرسالة الوحيدة التي لن أرسلها لكِ، لأني أريد دفن ما ارتكبت من خطايا، لا أريد لأحد أن يعرف لها سبيلاً حتى أنتِ عزيزتي.

عزيزتي سارة،

أفكر بالبحث عن عملٍ آخر، فذلك العمل صار يستهلكني أكثر مما يضر علي من المال، لقد كان دائماً كذلك ولكن حاجتي له الماسة جعلتني أغض الطرف عن ذلك الأمر بالإضافة إلى أنني لم أعرف عمل غيره، فلقد عملت بتلك الوظيفة منذ أتيت إلى هنا وعزيزتي حقاً لا أذكر تاريخاً لهذا اليوم لأن أحداثه شغلتني عن التوقف والسؤال عن تاريخ اليوم، فتاريخه لم يكن ليغير أي شئ فيه فلم أجد أهمية حتي لتذكره، أيام تمر.

اليوم وأنا أُقل الصغير إلى حضانته، أتخذت طريقاً مغايراً للطريق التي إعتدنا السير فيها ربما من باب إكتشاف المكان أكثر والإنصهار فيه، حينها وجدت جماعة من الناس يجرون، مرتدون ملابس رياضية خفيفة وأحذية رياضية ، كانوا متفرقين وكان أغلبهم يجري وحيداً بلا هدف سوى إطلاق تلك الأفكار التي زاد طنينها في رأسهم، لم يعيروني انتباهاً رغم طول تحديقي ولم يعيروا أحداً، أعتقد أنهم كانوا منشغلين بألا ينشغلوا.

عندما رآهم الصغير قلد حركتهم وإهتزاز أجسامهم، بدا ذلك المشهد ساحراً سالباً للعقول وحينها فكرت كم كبر ذلك الصبي، ويا إلهي كم بقينا هنا، وشعرت أني بحاجة للإسترخاء فقط الإسترخاء ومراقبة مرور الحياة لأنها بدت في الآونة الأخيرة تسرق الكثير، وذلك ما جعلني أفكر بالبحث عن عملٍ آخر، عندما أوصلت الصغير وفي طريق عودتي أخذت أحصي عدد الأعمال التي يمكن أن أتولاها دون

أن تستغرق مني وقتاً أطول وبمرتب أعلي، لذا قررت ألا أستقيل من عملي قبل أن أجد عملاً آخر ولكن قرار الإستقالة قائم، بالإضافة أنه لا يمكنني المخاطرة بضياع مرتب، فقد انتقلتُ من مسكني مرتين بسب تأخري عن دفع الإيجار والخصومات التي لا يلقي لها بالاً صاحب البيت.

حينما كنت أصغر وأغبى كنت أعتقد أنه إذا لم تروقني وظيفة سأستقيل وأبحث عن أخرى بتلك البساطة لم أكن أعلم أنني سارغم على عمل أكره حتى التفكير فيه وكأن الحياة عزيزتي شغلها الشاغل هو إذلالي.

عزيزتي أؤمن أن لكل منا نصيباً في العذاب ولكن فقط أشعر أن نصيبي عظيم ولا يمكن أن أتحمله وحدي، ولا يوجد من يتحمله معي سوى ذلك الصغير، أحياناً يختلط علي الأمر وأنسى من عليه حقاً الإعتناء بالآخر، ولكن فقط وجوده يعتني بي على عكس كل ما أقوم به ولا أفلح في الإعتناء به، وددت لو كان هناك كتيب يُرسل مع الأطفال للإعتناء بهم ولكنها فقط غريزة في نفسك عزيزتي، تضع الإحتمالات وقد يوفق واحد منها أو أكثر في تلبيه إحتياجات الصبي، ذلك الصبي هون علي الكثير وأظن أن كلانا في حاجة للآخر بنفس المقدار، إنه ليعطيني سبباً للإستمرار، فكرت كثيراً في إنهاء حياتي ولكني ألتفتُ وأجده وأتسائل لمن أتركه؟ وتكون وحدتي سبباً لبقائي على قيد الحياة بعدما كادت أن تكون سبباً في إنهائه.

غريب ذلك الشعور حقاً عزيزتي، شعور الأمومة، قادر على أن يفرحك بأبسط الأشياء وقادر على إكسابك مهارات لم تكوني تعرفي بوجودها قط، ولا تعرفين لذلك سبباً أو مصدر، ربما لو كان ذلك الصغير قد خرج من رحمي لوجدت سبباً، لو كان قد زرع بداخلي ونما ربما لكنت قلت أنه ترك شيئاً بالداخل يجذبني إليه كالمغناطيس،

أو ربما قلت أنه نصفي الكامن فيه ما أرعاه من أجله، ولكنه لم يفعل لذا ما الذي يربطني به بتلك الشدة.

أتسائل من تراه يشبه أكثر، ترى عيناه اللوزيتين وشعره المموج كان بالأصل لوالده أم والدته، أحياناً أشعر أنه يشبه والدي أيضاً بوجه الدائري ولون عينيه وبشرته القمحية، بل إنه عزيزتي يشبه والدي كما لم أفعل انا.

أتمني أنه عندما تطول قامته وتشتد أن يستطيع أن يفهمني كما فعل أبي وأن يستمع للكلام الغير مقال كما فعل أبي.

لطالما كان أبي ذلك العراف الذي يدرك ماذا أفكر فيه ولولا تشابه نمطينا في الحياة لقلت أنه امتلك قدرة سحرية على قراءة الأفكار ولكن تلك القدرة تقتصر على أفكاري أنا فقط، لم نعتد أنا وأبي التحدث كثيراً ولكنه إعتاد على أن يتخذ صفي كثيراً ويجد السبب في كلامي الغريب ويبرره للناس، لم أعرف الكثير عن حياة أبي سابقاً، حياته قبل أن يكون أبي، لم أكن أتخيل أبي غير أبي لم أتخيله صغيراً يلعب في الشوارع مع أصدقائه بملابس مهترئة وربما حذاء ممزق وكرة كانوا قد صنعوها ولم أتخيله أبداً شاباً متهوراً وغير حكيم يرافق القمر في رحلاته الليلة ولم أتخيله رجلاً يحب ويحارب ويتزوج، فقط عرفته أبي الذي يكبرني بحد لا أستطيع من خلاله إلا أن أراه أبي، وقامة تفوقوني _مهما كبرت وازداد طولي_بالكثير ولم أعرفه سوى واعظاً مأنباً ناصحاً يخاف أن تجور الأشياء علي.

في يوم كان من المتفرض أن نذهب في زيارة لجدتي بدرعا وكانت أمي قد سبقتنا كعادتها، وذلك ترك لنا وأبي مساحة لنا وحدنا، في الصباح إستيقظت باكراً على غير عادتي وصنع هو الفطور على غير عادته وتبادلنا أطراف الحديث على غير عادة الجميع، بدأ يسأل عني

وعن مدرستي وأصدقائي وأحداثي وكنت أنا عزيزتي التي كانت سابقاً تلقي عليه حكاياتها غاضبة فيسمع تارة ويعرض تارة، ثم تجهزنا وركبنا السيارة وقادها أبي، بصمت دون أن يتحدث فكأن الشخص على المقود والشخص على الفطور اثنان لا يمكن المزج بينهما، حتي إذا كنا في منتصف الطريق وجد أبي رجلاً يحاول إصلاح سيارته التي تعطلت به في الطريق، فتوقف أبي للمساعدة فتنهدت وارجعت رأسي للوراء مراقبة لهما، بدأت القامات تفرد وتنحني وتفرد وتنحني وتتشابك الأيدي وتنفصل ومازالت السيارة مثبتة في الأرض، تحدثا لمدة من الوقت ثم أغلق ذلك الغريب سيارته وأتيا باتجاه السيارة ففهمتُ أن أبي سيوصله لذا ترجلت وجلست في الكرسي الخلفي ليجاور الرجل أبي، تلك الدقائق المعدودة التي قضياها سوياً لم تكن كفيلة بإخراج كلمات تنبت صداقة، ربما بعض كلمات عن السيارات ولكن لا شئ هام، ولكنهما عاد إلى السيارة وأدار أبي المحرك، بديا كصديقين فرق بينهما الدهر ولم يتوقفا عن الكلام.

حكى أبي لذلك الرجل عن نفسه شاباً حينما خاض عراكاً وكان ذلك اليوم لا يريد العودة للمنزل لأنه علم بالعقاب الذي سيلاقيه، لذا قرر وأصدقاءه التأخر، وبعد عناء قرروا أن معبد نبو سيكون وجتهم، ويضيف أنهم كانوا في الليل وأضاف أن للمعبد سحراً خاص وأضاف لهم هم إندفاع وحماس، صاروا يضحكون بلا سبب ويتعاركون بلا سبب ويتحدثون في أشياء ليس لها معني، ونسوا أمر العقاب وأمر الشجار، يقول أنه وفي طريق العودة ومن شدة فرطهم في العبث قد انزلقت قدما أبي فوقع على رأسه وهكذا إنتهى به الأمر في المشفى وهذا هو سر تلك الندبة علي جبهته.

لم أكن عزيزتي أعلم بحكاية الندبة بل إنني لم ألحظ وجودها بالاصل، وعلى قدر إنشغالي بأن أبي لم يولد أبي وأن ذلك الشخص الذي لو

كنت رأيته لكرهت تهوره وسذاجته صار أبي ذلك الحكيم، انشغلت أيضاً بأن أبي ارتاح أن يحكي عن حياته لغريب لا يعرفه ولكنه لم يخبرني بذلك فقط.

ربما لأن النظر في وجهي كان يذكره بما هو عليه وليس ما كان، لا أعلم.

لم يسألني أبي عن أسبابي حين رفضت تلك الزيجة وبدا لو أنه يتوقع ذلك الأمر وأن الأمر بالنسبة له مجرد وقت انتظر فيه تأكدي للأمر ولا أعلم أكان سعيداً أم حزيناً بهذا القرار، ولكنه لم يناقش و وددت حقاً لو فعل، حينها انتشر الخبر بين أرجاء المخيم، لا أعلم كيف ولكن المجتمع صغير واجتماعية أبي جعل معرفة الأخبار عنا سهلة ومرغوبة، وكان "هو" على قدرٍ من الشعبية و المحبة يجعل الجميع منصفين له حتي لو لم يعرف أحد التفاصيل، والحق عزيزتي حتى لو علموا التفاصيل لما اتخذوا جانبي أيضاً فحتى أنا لم أتخذ جانبي، استمرت تلك الجلبة وتلك الهمزات واللمزات والنظرات الغير مفسرة طويلاً حتى ظننت أنها لن تنتهي أبداً، وجعلني ذلك أكثر إنعزالاً عن الناس وكان أبي على معرفة بذلك.

كان الحال في المخيم قد زاد سوءاً بوقتها وزاد اكتداساً فأصبح عدد الناس أكثر وأصبح من الصعب العيش في مثل تلك الظروف وبمثل ذلك العدد، فصار التوجه للحمامات أصعب والحصول على الغذاء أصعب، وحين حل الشتاء قرر أبي أننا سنرحل، أتذكر يوم هبت العاصفة على المخيم وكساه الثلج والمطر وطارت الملابس المعلقة مع الهواء واشتد بالناس البرد ولم يقدروا حينها على إشعال بعض النيران بسبب شدة الريح وكثرة المطر، يومها لم ننم، لأن المطر ظل يطرق سقفنا طوال الليل، في الصباح التالى كانت وجوه الأطفال كالثلج الذي يكسو الأرض وإزرقت شفاههم وأظن أن بعضهم قد

أُسعف للمشفي، حينها قرر أبي أنه لم يعد يحتمل ولن يحتمل، وتمني لو كنا قد متنا في البيت لا مشردين في مكان بعيد لذا لجأ أبي للفرار مرة أخرى، رغم أن كلمة أمي قد إعتذرت عنها ولكنها ظلت تطارد أبي وظل يندم على قرارات ويتخذ قرارات أُخرى بناء عليها وخوفاً من أثرها، غريب هو الشتاء، كأنما هو موعودنا للرحيل من مكان لمكان وكأن رياحه تدفعنا مع ما تدفع من رمال وأمطار وأوراق شجر، تدفع كل ما يخص الوطن بعيداً عنه، كذلك حان موعد رحيلنا.

ظلت تلك العاصفة ثلاثة أيام، في اليوم الثاني ظننا أن أبي مرض، كان يأتي إلينا أخذاً جزءاً من ملابسه ثم يغيب خارج البيت تاركنا وحيدتين، ثم يعود فيأخذ بعضاً من الطعام ويرحل دون كلام ولا سلام، ويطيل الغياب ثم يعود ويأخذ بعض الخشب ويغيب فيطيل الغياب وتشرق شمس اليوم الثالث، وأستيقظ لأري أبي جالساً في ركنٍ بعيد محدقاً إلى كفيه بعينين حمراوتين لم يزورهما النوم، عندما رآني حدق بي وسألني كيف هو حال ابن أخي يا ترى وكيف حال زوجته، وبدا وجهه كما لو كان حدث شيئاً مزعجاً، لذا سألته فأجاب وهو مازال باسط كفيه أنه لا يعلم.

لاحقاً علمنا أن أبي وزع ملابسه على ثلاثة من أطفال المخيم كانوا يرتجفون من البرد وأن الطعام قد وزعه على عائلة ضاق بها الحال وأنه أشعل النيران لعائلة أخرى وأن طفلاً قد كان أوصله للمشفي قد فارق الحياة.

بعد أيام كنا نعد حقائبنا للرحيل

الرابع والعشرون من فبراير2018

أنا و طيف أبي

عزيزي آدم،

لم أخبرك صباح هذا اليوم حينما قررت ولأول مرة أن تخلع نظارتك أمامي أن عينيك لا تناسب وجهك، لا أعني بشكلٍ منفر ولكنه بشكلٍ غريب فقط سئ أم جيد لا أستطيع أن أحدد ربما هي الحيادية التي تجعل أشياء أخرى غير الحقيقة تقرر في أي صف سأقف، بدا إنحناء جفنك وكأنه عازم على جعل عينيك حزينتين وكأنك على وشك البكاء، لم أخبرك بذلك لأنه حينما فعلت ذلك قلت لنفسي يا ألهي ماذا حدث؟ أسيبدأ بالبكاء الان ولكن بعدما تكلمت عرفت أنه شكل عينيك مما جعلني أشعر بذلك، وقد قررت أن ألوذ بالصمت ولكني اليوم ككل يوم لم أستطع النوم و أول ما جاء في عقلي هو أنت عزيزي باكياً لذا قررت أن أكتب لك عن ماذا لا أعرف ولكنه قلمي وما يجر من أفكار.

قبل يومين عزيزي مرض الصغير، بدا كعصفور مجهد لا يُخرج صوتاً وعيناه أوهن من أن تطيل النظر أو حتى تُفتح، فتراه عينيه نصف مفتوحة تكاد تقفل، لم أشعر به طوال اليوم ظننت أن ذلك ربما من إجهاد اللعب أو أنه وجد ما يلهيه طوال اليوم، ولم ألحظ إلا حين ناداني وقال أنه لا يشعر أنه بخير، وجدت جبهته كجمرة من نار، شُل تفكيري حينها ولم أعلم ماذا أفعل، تذكرت أمي فأحضرت قطعة من قماش وبللتها بماء و وضعتها على جبهته بكل خوف وبرود، كررت الفعل ثلاث أو أربع مرات، فكرت ربما لو تركته سيكون أفضل لكلينا، ربما حينها سأستطيع الرحيل دون أن أجد ذلك الخيط الذي يربطني بالحياة، لا أعلم بماذا كنت أفكر ولكني على أية حال تركته اليوم بطوله لا أشعر بما يلاقيه ولا أجدني أجيد الإعتناء به، يوم أنسي أن أحضره من حضانته ويوم أتركه يتعلق بالشرفة دون أن أعيره

انتباه، أنسى متى أطعمه وماذا يجب أن أفعل ليكف عن البكاء، وأحياناً أدفعه للبكاء وأحياناً يدفعني هو، ولا أعرف حقاً إن كنت سأتمكن من توفير ما يحتاج حين يكبر أو حتى غداً، ولا أعرف إن كنت سأجيب عن أسئلته حين يكبر ولا أعتقد أني أمتلك لها جواباً فإذا لماذا لا؟

ربما لو أرخيتُ قبضتي قليلاً وتركته يُحلق بعيداً لكان أفضل له ولي، ربما سيقابل من يعرفوه ولا يعرفهم وربما حينها لن أستطيع العيش بذنب فوق ما يعتريني من ذنب فألحق به ويتلاقى الجميع.

صمدت تلك الفكرة في رأسي حتى أنني أبعدت قطعة القماش من رأسه وأمسكت بيده وأخذت أبكي، ولكن الله يا أخي بعث من أقصي المدينة فتاة تسعى، طرقت يمنى الباب، فأعادت طرقتها رشدي إلي لوهلة ولكن الفكرة مازالت تقاوم، فكرت في ألا أجيب وكان هناك حرباً في رأسي، حرباً تُسقط قتلى على كلا الجانبين وأشعر بوقع سقوطهم في رأسي، في النهاية أجبت وأخبرتها أن الصبي مريض فأخذت كلانا للمشفى، لما فكرت في ذلك؟ لا اعلم، لما أخبرك ولا أخبرها؟ لا أعلم

عزيزي أظن أنني لن أخبرك ولا سأخبرها، ربما سأدفن تلك الرسالة مع ما أندم عليه من رسائل.

عزيزتي سارة،

يومها كان البحر جميلاً هادئاً وديعاً وبدت فرصتنا أكبر للنجاة، كنا نجلس على الشاطئ بعد طريق طويل من المخيم إلى هنا، كانت رائحة اليود تخترق أنفي للمرة الأولى منذ ثلاث سنوات، وذلك الهواء الذي ضرب رئتي أنعشني حقاً ولوهلة نسيت أمر الحصار وأمر المخيم وأمر الهروب وشعرت أنني أنا مجدداً وأنني حينما ألتفت سأجد طريقاً أعرفه جيداً أخطوه عائدة للبيت، كان شعوراً جميلاً ببساطة، جميلاً ولا كلمة غيرها أعرفها لأصف ذلك.

قلت لوالدي أنني سأمشي قليلاً على ذلك الشاطئ وأجمع بعض الحجارة، بين كل خطوة وخطوة كنت أنحني لأن لوناً ما أعجبني وأردت أن أمتلك مثله، فأخذه وأحمله بين يدي وبدت أن ألوان الحجارة التي لا تتعدى درجات البني والأصفر كثيرة إلى ما لا نهاية، كنت حينها أفكر في حديثي أبي وأمي البارحة، ذلك الحديث الذي إختلسته بينما يظنونني نائمة.

"لا أشعر بالإطمئنان"

"ليس أمامنا حل آخر"

"بل نبقى"

"انظري لابنتك، إنها لا تستطيع العيش، انظري إليها هل هي تلك التي كانت في حمص، هل هي نفسها، إن من في المخيم قد وضعوها

على جانب وحدها وهي لا تمتلك الشجاعة لتعبر، ناهيك عن الطوابير الطويلة للدخول الحمام ولا الحصول علي الغذاء ولا الذل والإهانة التي نتلقاها كل يوم، انظري إلينا هل نستحق هذا، إن الحياة هنا صعبة ويوماً ما سنرحل أنا وانتِ، ماذا تفعل الصبية حينها"

"قد لا ننجو من هذا ثلاثتنا"

"نكون قد رُحمنا من مثل تلك الحياة"

خيم عليهم الصمت ولم أسمع سوى أصوات أنفاسهم ثم.

"هل أنت متأكد من ذلك الشخص"

"لست متأكد من شئ ولكن حتى أسوأ الإحتمالات أفضل من هذا"

ثم ساد الصمت تمام، لم ينم أبي وأمي ليلتها ولا أنا فعلت ولكني تظاهرت بذلك، حين كان الفجر، تظاهرت أيضاً بالإستيقاظ وتظاهرا هما بالإطمئنان.

تلك المرة عزيزتي عرفت ماذا سأخذ معي، صورة لأخي وكرة صغيرة قد أهداها لي صديقي الصغير، والباقي تركته فلا احتاج من شئ سوى رداء أو اثنين قد جهزتهم أمي، لم أخرج من المخيم سوى في اليوم الذي ابتعت فيه الكرات الصغيرة وذلك اليوم حين رحلنا، وكنت سعيدة هذة المرة لأنني لن أعود، ليس كرهاً خالصاً للمكان ولكن عزيزتي هو كره خلقته المصادفة، في الطريق بدا أن خوف أمي قد انتشر في أنحاء جسدها وقد غير ملامح وجهها فبدت أكبر بسنوات وأبي حينها بدا كجندي، كجندي يريد النصر أو الشهادة ولا يعبأ بما بينهما، كجندي قُتل كل من يعرفه في الحرب وصار الموت خلاص له أكثر من الحياة، بدا حينها أن أبي قد امتد ليحجب ذلك الضوء القادم من كل مكان وأنه كبير إلى ما لا نهاية، بدا أقوى وربما

أكثر يأساً ولكنه بدا قادراً حينها على حمايتنا، حينما كنت أنحني لإلتقاط حجر صغيراً وارتفعت لأنظر لهما بدت أمي عجوز شحب وجهها وكثرت خطوطه وبدا أبي شاباً قوياً ولكن كلاهما ممسك بالآخر يرفض أحدهما الإفلات وكأن ذلك الإختلاف هو ما يدفع بالمركب إلى الأمام، لو قدر لي أن أجد آلة للزمن تنقلني ولو لثوانٍ إلى زمن آخر، لاخترت تلك اللحظة وأهدرت ثوانيّ في النظر إليهما.

عدت إليهما حينها وقد جمعت بعضاً من الصخور التي كنت أعلم أنني سأتركها هنا ولكن سأتركها متجاورة يأخذ بعضها من جمال الآخر، مد أبي يده في جيبه وسحب رزمة من النقود كان قد جمعها، وقسمها إلى ثلاثة أجزاء وأعطى كل منا جزء.

"فقط في حالة"...

إلتفت حولي لأجد عزيزتي الكثير من الناس ممن هم مثلنا، أُسر ورجال وشباب، قد أخذت كل مجموعة جزءاً من الشاطئ جلست عليه تتحادث كما لو كان الحديث الأخير، كان الجميع حينها يعلم أنه يُلقي بنفسه للموت ولكن هذا كان الخيار الأفضل لهم، لذا كان على الجميع التأكد من أنه يعرف الآخر وأنه أظهر له قدراً من الحب كافياً وأن الآخر يعرف ذلك، بدت الأحاديث الآخيرة شيقة ومليئة بالتفاصيل والمشاعر، بدت صادقة ونقية، بدت على الفطرة.

كان يجب أن نركب مركب صغيرة مطاطية تبحر بنا إلى واحدة أكبر، تكون حينها هي التي توصلنا لمقصدنا، لابد أن واحداً قد فكر فيما فكرت فيه فذهب ليتفقد تلك المركب المطاطية ليتأكد من خلوها من أي عيب، ولكنه حاول بقدر الإمكان ألا يكون مرئياً لكي لا يجلب علينا سخط المُهرب، عرف أبي أن من سيقود تلك المركب هو أحد المسافرين ولكنه لا يملك مالاً كافياً لذا سار الإتفاق على أن يقود هو

المركب الصغيرة ليصلنا بالكبيرة، لم يخبرنا أبي بذلك حينها بالطبع لكان ذلك زاد أمي شحوباً.

بعد وقت طويل عزيزتي من جلوسنا، نادى رجل أن نذهب للقارب، ففعلنا وكذلك فعل الناس، ركبنا بطريقة منظمة كنت أجهل أن فينا في مثل تلك الظروف قدرة على النظام، واكتشفت حينها أن منطق جدتي يتبناه الكثير من الناس، فكانوا يتعارفون ويحكون وكأن هناك ما بعد تلك المحنة.

حينما ظهر القارب الكبير هلل الناس وكأنه يوم العيد وكاد القارب الصغير يفقد إتزانه، ولكننا وصلنا على خير وصعدنا من الأول للثاني، اجلسونا في أسفل السفينة وحُجب عنا الضوء إلا من نوافذ دائرية صغيرة، افترشنا الأرض بدون ترتيب أو نظام وتم توزيع سترات النجاة فارتديناها في صمت منتظرين.

كانت أمي أن تقول أني لا أطيق الإنتظار وأنني أريد الشئ اليوم لا غداً وأعتقد أن هذا كان صحيحاً، في ذلك اليوم جربوا جميعاً أن يكونوا مثلي، كارهين الإنتظار وكارهين مرور الوقت البطئ منادين للشئ أن يأتي اليوم لا غداً، أعتقد أن كل معاني الحياة السخيفة قد قُدرت في ذلك الوقت وأن ما كان معتاد صار حدثاً في ذلك الوقت، لذا عزيزتي فإن كل من في القارب جلسوا في إنتظار شمس جديدة لم يعهدوها قبلاً.

أردت حينها أن أتخذ من الحياة صديقة وأن اجلس بجوارها فتحكي لي حكايات من بهذا المأزق معنا، آردت أن أعرف حكاية ذلك العجوز ذو القدم الواحدة، أفقدها في حرب أم حادث عادي أم فقده جراء ظلم، إلي أين وجهته وأعني بالتحديد، وماذا يأمل في تلك الحياة إذا خرج على قدمه الآخرى، كم من الوقت سيعيش ولمن؟ وذلك الشاب الجالس

يحمل هاتفه ويسجل كل ما هو خارج النافذة، أيصوره لصديق أم حبيبة أم عائلة، ماذا فقد خلال الحرب؟ أفقد كل شئ وبقى هو وحيداً على ذلك القارب، وإن كان وحيداً فلما يحاول، لما لم يبقى في الوطن ينتظر قدره في صمت، لما يصر علي الحياة ويتشبث بها بأسنانه، وتلك الجميلة التي تحمل صغيراً بين يديها، أتلقي به في مثل ذلك الموقف، لما تخاطر بحياته بهذا الشكل؟

ملايين الأسئلة قفزت بعقلي و وددت لو عطف أحدهم علي وجلس ليحكي لي كما تفعل جدتي ولكن جدتي رحلت والباقي يتمسك بهيكل هش يحافظ به على رباطة جأشه.

أتعلمين عزيزتي تلك الأسطورة عن أن الإنسان المقبل على الموت يسترجع ذكرياته قبلها بأيام ويشعر بأنه يحتضر، تلك كانت أنا على متن القارب، الفارق الوحيد أنني لم أمت، كان فيض الذكريات قد هاج مثلما فعلت أمواج البحر، فصرت أتذكر أشياء كثيرة، أشياء تسعدني وأشياء تحزنني وما بينهما أنا لا أستطيع إيقاف هذا الشئ، ليس كما لو كان شريط فيديو بل هو أشبه بمُختطِف يحملك حتى يُجلسك على كرسي ويشد وثاقك ويظل يحكي ويحكي وأنتِ لا تملكين سوى أن تستمعي لأن ذلك الخاطف ليس بالخارج بل إنه داخل عقلك.

الغريب في الأمر والمضحك المبكي أنه طريقاً اختاره كل منا بإدراته الحرة ولا نملك حين تنزلق أقدامنا لعن شئ سوي أنفسنا، أحياناً أشعر أن ذلك القدر الذي رما بنا هنا هو في الأصل سياسي محنك و هذة لعبته التي يربح فيها كل مرة، لو كنا جميعاً في ظرف آخر لقلت لكِ أننا أحببنا الأمر وأن رحلتنا بالسفينة كانت رائعة ولكن تبخترها في البحر كان يخرج أرواحنا ويعديها كلعبة تنس بين لاعبين محترفين لا يُسقط أحدهما الكرة أبداً، قد يبدو على البعض منا عدم الشعور بأي شئ ولا الخوف من الإحتمالات ولكن الموت وإن كان صفقة رابحة

لنا جميعاً فإن الحياة غريزة بنا لا نستطيع ألا نفزع لفقدانها أو لفقدان من نحب.

ذكرني ذلك المشهد بنا في قبو البيت ولكن الإختلاف هي تلك الرائحة التي تجمع بين يود البحر وبين عفن السفينة ورائحة الخوف تشع من أجسادنا، وهدوء البحر وصراخ الأطفال وكلام الكبار وخلو الجو من صوت صواريخ مدوية.

كيف يكون الموت؟ رأيتها عبارة علي كل وجه حولي، ما الفرق بين الموت غرقاً في قاع البحر والموت تحت أنقاض البيت، هل سأشعر أفضل إن كانت جثتي كاملة دون تمزيق، هل سيكون أفضل لو وجد من بقى صخرة يبكيني عندها؟ أيهما أهون وأسرع، لا أدري ولكن كلاهما موت وهذه هي النهاية لكل روح كما خُلقت تعود.

لا عزيزتي لم أشعر حينها بالغضب ولم ألعن السبب في سري، كنت خائفة أذوب خوفاً، جميعنا كنا كذلك ولكن لم نشعر بالخوف أو الكراهية، ربما هي قدسية تلك اللحظات السابقة للرحيل، أو هو غياب الأسباب والمقاصد والغايات والرغبات فلا تبقى سوى اللحظة خالصة، دون شوائب أو مبررات أو أسباب فيأتي الشعور على مقدار الحدث.

وبين ذلك وذاك، كان هذا الشعور في وجه أمي وتلك النظرات المرسلة، كنظرات الفاقد قبل أن يفقد، ونظرات اللوم والتحسر، كانت مباشرة من عينيها إلى عيني بحاجبين معقودين وملامح مقبوضة، ولا أعلم حقاً لمن كان لوم أمي، أكان لي لأني لم أتزوج وأتركها وأبي لمصيرهما في المخيم، أم لأبي العاقد العزم على هذة الرحلة، أم لنفسها بالأساس لأنها أنجبتني.

إن علاقتي بأمي كانت تلك العلاقة العادية بين الأم وابنتها وهذا ما جعلها غير عادية غريبة ومميزة، ذلك بأنها بدأت ليس يوم ولدت ولا يوم كنت نطفة في رحمها بل لأنها وجدت بوجود أمي، منذ ذلك اليوم الذي قُدر فيه أن تكون أمي، ولأن عمر تلك العلاقة من عمر أمي فإنها أكثر من يعرف عنها وأكثر من يقدر على أن يشعر بها ولكنها على ذلك لا تستطيعين أن تفسيرها قيد أنملة، كلنا كذلك، ليس لجهلنا بل لتعقيدها أو ربما تساميها على جنس البشر أجمع فلا يمكننا إلا أن نؤمن بوجودها.

كانت أمي أكبر أخواتها أولاداً وبنات، ولقد شهدت مولدهم واحداً تلو الآخر وربما تعرف عنه أكثر مما تعرف جدتي عنهم، ذلك بأنها كانت الموكلة بهم والرقيبه عليهم وقبل أن تكون أمي أمي كانت أماً لخمسة أشقاء، أحبوها كأم لهم وخدمتهم هي كأبناءها وبين ذلك وذاك أمي تكبر سنة وراء سنة ولا يتسع البيت أكثر من ذلك لها، إعترفت أمي بأنها أرادت أن تتزوج وبشدة، أرادت أن تهرب من كل تلك المسؤليات وتتكفل عناء نفسها أو شخصاً واحداً آخر أما عن تلك الدولة فهي ترهقها، ولكنها تعود لتنظر لعيون أولئك الأطفال فتقول لا وترفض عريساً وراء آخر، أترين عزيزتي، تصرف غير منطقي متهور وفيه ظلم عظيم لها ولكنها تفعله بابتسامة وتفرح به كثيراً كما لو كان أفضل الخيارات، هذه هي الأمومة، أن تُعذب ولكن بسعادة، ولقد زُرعت تلك الأمومة فيها منذ الصغر فمزج ذلك الجزء المختلط بذلك الجزء الفطري ولم يعد هنالك مجالاً لأنانية البشر في قلبها، ما جعل أمي تختلف أنها كانت أماً حتي النخاع وأن جزء آخر لشخصيتها قد مُحي فأضحت تصرفاتها مبنية على أساسٍ وثوابت أمومية حتى قبل أن تكون أماً، حتى جاء ذلك اليوم الذي ضاق جدي بأمي ذرعاً وبرفضها الغير مبرر وعمرها الذي ينسل من يدها، وكما يحدث في

الأساطير فإن أول من يدق الباب هو زوجك، وتقول أمي أن ذلك كان من حسنات القدر أن كان والدك هو ذلك الشخص، هكذا.

ببساطة عزيزتي، لا قصة حب ملحمية ولا حبكات، إنها سهولة القدر الممتنعة وجمال هذه القصة في ندرتها عزيزتي، كأن تربحي اليانصيب عندما تفكرين في ذلك.

ومن هنا بدأت الأمومة المشروطة، الأمومة المتحققة بوجود الأبناء، وهنا كنت أنا لأتعرف على تلك العلاقة التي حتى وجودنا في تلك السفينه لم ألحظها، فقد كنت ألحظ تلك الأشياء الرمزية الصغيرة مثل طهو الطعام وغسل الملابس وترتيب المنزل والتطبيب والحياكة والنصح والتندر ولا شئ آخر، أخذني الأمر أن أكون على حافة الموت لأعرف أنه لم يقتصر على ذلك بل كان حياة تهبها لنا بدءاً بالميلاد وحتي الطهي، لقد كانت تقف بالساعات لتعد وجبه لا تذق منها سوى القليل ولو طهت لنفسها ما تكلفت هذا التعب ولكنه ليس لها بل للحفاظ على حياة أخرى، ذلك المجهود في التفكير بما يحب ولا يحب شخص ما والتتوق لرؤية وجهه حين يتذوق ذلك الطعام، لم يتعلق بتنظيف المنزل بل تعلق بإبقاء المكان مستعداً ليوم آخر، كان يتعلق بالمحافظة علي الحياة التي وهبتها.

أتذكر يوم انحني البيت، وأقول ذلك لأن البيت إنحني فعلاً، كانت أمي في ذلك اليوم قد استلقت على سريرها منذ بدء اليوم حتى نهايته لا تكلم ولا تتكلم مع أحد تجدها إما نائمة أو محدقة بالسقف، كان البيت في ذلك اليوم لا يبدو في حالة من الفوضى فقط بل في حالة من الموت وكأن هنا أجياف نمت على الجدران وأثرت على هواء المنزل فأصبح مسمماً، لا أعلم ما الذي حدث مع أمي ولكن في اليوم الثاني

حين قامت وبدأت بعملها المعتاد لم يسأل أحد وكأنه زوبعة ورياح موسمية ثم رحلت.

أتذكر أحد الأيام عندما عدت من المدرسة وصرت أتحدث لها عن أحد المواضيع العلمية التي أجدها شيقة وأنتِ تعلمين أنني لا أجد التشويق إلا في الأمور المعقدة، كنت أعلم أن أمي لن تفهم ولكن لماذا استمريت بالحديث؟ ربما لأنها جمهوري الوحيد الذي لم أدرك وجوده، حينها كانت أمي ترسل نظراتها بعيدة عني لأن ذلك الحزن المصاحب للفرح يكسوها، كان ذلك الحزن لأنها لا تفهم ما أقول ولا تستطيع أن تحدثني أو ترد علي حديثي المختلط بذلك الفرح بأنني عرفت تلك الأشياء وأنني أقولها لها، بإختصار كان فرحها لي وحزنها لأنها لن تستطيع أن تعطيني أكثر.

"كل هذا سيمر وستبقى فقط ذكرى نحكي عنها" همست أمي في أذني حينها، حين إشتد الصراخ حولنا وجن جنون الناس والبحر، أقول أن أمي كان لديها ذلك الحدس، القدرة على الشعور بما سيحدث ولو كان بعد سنوات لأنني ها هنا عزيزتي اكتب لكِ عن هذه الذكرى.

هل كانت أمي تعرف أنها ستكون هي الأخرى ذكرى، ذكرى قد لا أحتمل مرورها بعقلي.

عزيزتي كل ما أتذكره حينها، هي تلك القطرات الساقطة من جسدي علي حبات الرمال وضوء الشمس يلمع ويغيب عني وكلاماً لحنه بدا مخيفاً أكثر منه غريباً، وجثث بجواري تغطيها أكياس سوداء وجثث إحتضنها البحر بدلاً عني، وبكائي إلي الأبد.

الأول من مارس 2018

عزيزي آدم،

يتربص بي ذلك الشعور منذ فترة، شعور النسيان وكأني نسيت عمل شئ كان يجب علي الإنتهاء منه ولكني تناسيته فنسيت أن انهيه ونسيت ما كان، ولكن ذلك الشعور لا ينساني أبداً، يتربص بي كالمجنون ويُحكم علي قبضته، كل ما أحاول التفكير في شئ يترائى أمامي فيحجب أي شئ آخر، لذا قررت بعدها أن أعيد تذكر ما فعلته ربما أتذكر ذلك الشئ.

لذا اليوم إستيقظت متأخراً على عكس ما أفعل، ربما لأن الكاوبيس التي تطاردني لم تعد على ذلك القدر من الرعب التي كانت عليه في بادئ الأمر لأنني إعتدت وجودها، بالطبع مازالت تُخيف وتجر ورائها ذيول الذاكرة ولكني أصبحت أخاف بهدوء فيتعرق جبيني ويرتجف جسدي وحين أصل لذلك الجزء الذي ينبغي علي أن أفزع فيه وأفارق السرير تراني تقلبت إلي ناحية آخرى دون أن أفتح عيني وأنام على الفور فيراودني واحداً آخر، وهكذا أتقلب من اليمين إلى اليسار طوال الليل، عند إستيقاظي رأيت الساعة، ضُربت بصاعقة من السماء فأصبحت أنجز مهمتين في الوقت الواحد وأنتقل من هنا إلى هنا بسرعة البرق حتى أنهيت تجهيز الصبي وصنع طعام له، وقمت إلى نفسي على عجل أتجهز، بيد واحدة وبدون أي مساعدة خارجية من دبوس لففت الحجاب على رأسي بسرعة وصفعت باب البيت وخرجت ثم تذكرت أني نسيت الصغير فعدت لأخذه وكأن العالم كله يحاول جاهداً تأخيري، أمام البناية الكبيرة التي فيها شقتي قابلت صاحب البيت وطالب بإيجاره فأخبرته بأنني سأحصل على راتبي اليوم وسأدفع له إن شاء الله، خرجت كل الكلمات بلغته إلا إن شاء الله جاءت عربية مشددة مرققة بلفظ فصيح، فإتسعت حدقتا عينه لا أعلم

لسماع أي جزء الأول أم الثاني ولكنه قال "الأحرى أن تسرعي لأني لن أمهلك" ثم إستدار وتمتم ببعض كلمات لم أسمعها ورحل وفعلت.

في الطريق لتوصيل الصغير سألني ماذا تعني إن شاء الله فرددت عليه إن شاء الله وأعدت ضبط حجابي ثم أعاد السؤال مرتين فأجبته بنفس الإجابة وعندما أصر للمرة الثالثة قلت له إن شاء الله تعني إن شاء الله ألا تفهم وسحبت يدي من يده لأعيد ضبط حجابي ولكنه نظر إلى حذاءه وبصوت منخفض أجاب، لا أفهم، أدركت حينها ما كان يصبو إليه فهو لا يعرف ولم يتحدث العربية ولم يسمعني أنطق بها منذ عرفني.

هل هذا ما تناسيته، هل هذا ما كان يجب علي أن أنهيه؟

هذا الطفل؟ هذا ما كان معي دون أن أشعر يطالب الان بكامل شعوري وإنتباهي، أتعلم تلك الصفعة التي تجعل العالم حولك يدور ثم يقف عند نقطة معينة كانت تلك النقطة هو ذلك الصغير.

تلك البذرة تستمر في النمو وضرب جذورها في الارض وكل عام يمر سيسأل أكثر سينبش عن تلك الحقيقة ككلب مسعور وماذا أفعل حينها، حين ينزع السكين ويعيد غرزها في صدري دون دراية، تلك العينان اللتان تنظران بحب ذات يوم ستتوقف عن ذلك وستدور بحثاً عن حقيقة وعندما لا تجدها عندي سترحل، هل أخبره؟

ولكنه في الرابعة من عمره على الأغلب، ولن يفهم، ولكنه سيسأل ذات يوم، سيكبر ويسأل ويفهم أنك تكذبين، سيسأل عن يوم ميلاده فأي يوم ستخترعين الثالث من آب أم الخامس عشر من نيسان، سيسأل عن يوم ولادته، سيسأل عن والده، سيسأل عن الصفات التي تشاركها معه وهل كان يحبه أم لا سيسأل عن أهله وعن بلده وحينها لن تستطيع مخيلتي الجرداء أن تجاري ذكائه العابث، يمكنني أن

أهديه الحقيقة ويمكنني أيضاً أن أهديه الراحة أن أهديه أرضاً يقف عليها، أن أهديه فقدان الذاكرة الذي تمنيته، فيزيد طوله وهو يملك أرضاً ويملك لغة وربما حينها يستطيع أن يكون عائلة ويكون بأمان، حينها سيكون له بالاً مرتحاً لا يشوبه ندم ولا غضب فائض ولا ذل مهين ولا ذلك الحزن الذي يجاهد كل فرحة تحاول أن تعبر، سيكون له كل ما تمنيت وكل ما لا أستطيع أن أحصل عليه.

وماذا عن الدم؟ سيعرف عزيزي بالطبع سيعرف، ستناديه الحقيقة من فوق سبع سماوات كما كانت تقول أمي حينها أكذبها القول، سيعرف أنه لم يمتلك تلك الأرض ويعرف أن أرضه لم تطئها قدميه وربما لن تفعل، ستصيبه الحمى حينها ويدور بحثاً عما له في هذا العالم وحينها سيعرف أن كل ما لديه هو وهم تمنى لو أنه جهل أنه وهم.

هل أخبره ويختار هو؟ ربما حينما تمر الأيام وتنتهي الحرب سيعود كل شئ عادياً وسيذهب ذلك اللمعان الذي أضافته الحرب على الوطن فيرى هو أن ذلك شيئاً عادياً لا يدعو للغم، وسنفقد ذلك الإحساس بالحرقة ويعود الوطن كما كان قبل الحرب لا يزيد عن كونه أرضاً.

هل أتناساه؟

السادس من مارس 2018

المتناسيه

عزيزتي يمنى،

أتوقع ذلك العجب الذي يعتيرك الان وأستطيع رؤية ملامحك المفجوعة أمام الرسالة ولكن عزيزتي هذا ليس وقت للتعجب لأن الغريب مازال سيُسطر في باقي الرسالة لذا أرجوا منك أن ترفعي فكك الذي تدلى وتكملي رسالتي إلي النهاية، أعلم أنكِ منذ تقابلنا وأنتِ تحاولين المساعدة، بطرق خاطئة أحياناً كثيرة ولكنك تحاولين كما أعرف أيضاً أن هناك هالة من الغرابة تحيط بي وتحاولين أنتِ أن ترميها بأسهمك ولكنك لا تصيبينها أبداً، أتعلمين لما يا يمنى؟ لأنك أبداً لا تسألين الأسئلة الصحيحة تشغلين بالك بتلك التفاصيل التي لا تضر ولا تنفع تهتمين بها لأنها فقط تسرق أهميتها من أهمية الموضوع فتصبح عند ذكرها قصة بذاتها ولكنها لا تحمل حقيقة وانتِ لا تبحثين عنها، وأول شئ غريب ينطلق سهمك نحوه الان هو لماذا رسائل ورقية؟ الان في ذلك العصر، وبكل وضوح لنقل أنني كنت أحاول أن أصل لشخص ولا أملك أي وسيلة إليه سوى الرسائل وبعد ذلك أدمنتها، راقني خطي على الورق رغم بشاعته وراقتني تلك الخطوط التي تعتري الكلمات حين أخطئ أو أندم على قول شئ ما، إنها حقاً تحمل مشاعر فإرتجافة اليد أثناء الكتاب أو إستقامة الخط كلها تدل علي مشاعر تُخفى حين أُراسلك بشئ غير الورق.

عزيزتي أرى أن سهمك الثاني قد رُفع وهو سهم واهن لأنه كما قلت سابقاً يبحث عن التفاصيل فتسألين الان في مكان ما في عقلك من هو ذلك الشخص؟ وعزيزتي إنه لا يحدث فرقاً ولا يضيف معنى أو يمحي آخر هو فضول زائد، والان أحسنت عزيزتي في هذا السؤال لماذا أنتِ، لما أراسلك؟، وهنا أقول أن الأمر على عكس كل ما إعتدتي لا يدور حولك، إنه انا من أجد في تلك الرسائل طريقة لاكتب

بصدق وأنني هذة المرة من قررت أن أمسك بسهامك وألصقها بهالتي فأخبرك بالحقيقة لأنك تستحقين تفسيراً ولأنني أريد مساعدتك.

بالطبع لن أتمدد على كرسي وأخبرك أن الأمر بدأ منذ كنت في الخامسة من عمري، لا إن الأمر بدأ حينما كان ذلك الصغير في الخامسة من عمره على الأغلب، إنك تعرفين كل شئ عني تقريباً أو تتوقعينه صحيحاً لذا فإن الهالة قد تُزال من حولي وتلتف حول ذلك "الصغير"، أتتذكرين حين قلت لكِ أنه ابن أخي؛ إنه ليس كذلك وكان من السهل على أي طفل أن يرى رعشة يدي وأن يكتشف من طريقة بحثي عن اسم له حين سألتني أنني أكذب، ولكنك صدقتي وأعلم أن كل ذلك لأنكِ لا تريدين إضافة مزيد من الأسئلة لعقلك، إنه ليس حتي قريب لي من الدرجة الثالثة ولا جارانا ولا أعرف والديه ولم تجمعني بهما علاقة ولا حتي أعرف شكلهما، لا عزيزتي لا تجزعي، بالطبع لم أخطف ذلك الصغير، وكأني أريد مزيداً من الهم!

بل وكأنه عزيزتي قذف إلي من السماء، أعرف أنكِ سئمتي من تلك الألغاز ولكن هي الحقيقة وسأخبركِ بها.

في ذلك اليوم الذي استفقت فيه على شاطئ بلد لم نكن بالغيه إلا بشق الأنفس، ذلك اليوم الذي تلى رحيلنا من المخيم وقدومنا إلى هنا، الغريب في الأمر أني لا أذكر مما حدث شيئاً سوي لحظة اضطراب البحر وصراخ من في السفينة وصوت أمي يخبرني بأن هذه اللحظات ستمر وأنني ساحكيها يوماً ما.

غريبة هي أمي، بذلك الحدس الصائب دائما، أتعجب كيف تفعلها، كيف تخمن ما سيحدث وترتب أمورها على أساسه ثم يحدث فعلاً، لقد كانت خائفة تلك المرة من أن نرحل من المخيم، رغم رفضها لسفرنا في المرة الأولي ولكنها هذه المرة كانت قد صرحت لأبي بخوفها،

وها أنا الان احكي لكِ ما قالت لي أنني ساحكيه يوماً ما، هل كانت تعلم أن جسدها سيسكن قاع البحر؟

يقول الأطباء أن عدم تذكري لما حدث ذلك اليوم هو نتاج للصدمة ولهول ما حدث ولكني لاقيت ما هو أفظع، قلت في عقلي حينها هل هو أفظع من أن تجد قدميك قد داست على جثة ملقاة في قرع الطريق ولكني لم أخبرهم بذلك حينها، تركتهم ليصدقوا ما يعرفون، لأن لا شئ مما سأقوله سيكون واقعياً لهم، ربما كانوا سيلقون بي في أحد المستشفيات إذا أخبرتهم أنني استيقظت على الشاطئ مبللة يحاولون إيقاظي وفي ذراعي طفل صغير ربما هو في السنة الثانية من عمره أُمسك به كما لو كان هو طوق النجاة، ماذا سأقول لهم، قُذف من السماء إلي فامسكت به بالطبع سيلقون بي في مشفى ويأخذون الطفل بعيداً.

لا أريد إرباكك يا يمنى وحده الله يعلم ذلك، ولكن هذا ما حدث وهذا ما أستطيع تذكره ويزعجني أكثر أنني أترجى ذاكرتي في بضع أجوبة ولكنها تأبى بأكثر من ذلك، تلك الفجوة الصغيرة بين ما كان وما سيكون أحاول أنا ملئها بما أتخيل أنه قد حدث، أقول ربما في منتصف الأمر حينما كانت سفيتنا قد إبتلعها الماء والناس تصرخ من حولي للنجاة استطعت أنا التمسك بطوق وظللت ممسكة به حتى هدأت الأصوات وغاص بعضها إلى الأسفل وتشبث الباقي، أقول قد كان ذلك الصبي يبكي موضوع على أحد ألواح السفينة فالتقطته، ولكن حينها فقط الفجوة تزداد والأسئلة تتفاقم محاولة نفي ما أحاول تأكيده، عزيزتي أقول لك كما أقول لنفسي ذلك الصبي سقط علي من السماء، بعدما استيقظت على ذلك الشاطئ وذلك الصبي بجاوري تعاملت وكأنه كان معي منذ البداية لا إرادياً فحملته وإجتزت الحشد حولي وبدأت أبحث عنهما "أبي وأمي" إجتزت عدداً من الجثث ليس بقليل،

صرت أتعثر بأحدهم فأحيط الطفل بذراعي كي لا يصاب ثم أقف مرة وأبحث حتى أوقفوني، وحينما نظرت لذراعي وجدته بينهما لا أعرف كيف لا أعرف متى ولكنه بطريقة ما بينهما.

أخذونا إلى الأطباء وأخذوه من بين ذراعي، لم أتكلم حينها، فقدت قدرتي على النطق، كنت أفهم ما يُقال لي وكنت أفهم الأسئلة ولكن عقلي أصابه الشلل، وجمد لساني، كانوا يفتحون عيني ويؤشرون بالكشاف فيها ويأخذون عينات من دمي وأنا مستسلمة أراقب الكثير من أمثالي أحاول التعرف على أحدهم ربما جاء من نفس السفينة فيعرف ماذا حدث ولكن ذاكرتي خانتني مرة آخرى، شعرت حينها أنني عارية وأن الرياح تخترق جسدي وأني أوهن من أن أصمد لثوانٍ معدودة أخرى، أردت طريقاً أسلكه ولكني وجدت نفسي في متاهة، ماذا بعد؟ لا أعلم، وقتها تمنيت لو أن أبي استمع لأمي هذة المرة ولم نغادر ولم يغادروا، ما حدث بعدها هو كما حدث قبلها مشوش لا يجمع جملة أو ذكرى تخبر الحكاية، كل ما أعرفه أن من جاءوا معي رثوا لحالي فصاروا يتكفلون بمهامي حتى نُقلنا لمبنى هو مجمع اللاجئين فى هذا البلد، فصار بعضهم يُكمل ورقي و ورق الصبي وبعضهم يقدم لنا الطعام وبعضهم يرشدنا للطريق وبعضهم يحادثني ولكني لا اتكلم وإن أردت، لا تخرج من فمي كلمات مترابطة وهذا الصبي لا اعلم كيف هو صامت مثلي مستسلم لي كما استسلمت من قبل لما يحدث.

وهكذا عزيزتي بدأ الأمر خطوة بخطوة، إدعائي أنه ابن أخي لم يكن أبداً نظرة بعيدة الأمد نتجت عن ترتيب وتفكير بل عبث ترتب فأوصلني لتلك النتيجة، لا أقول أنها نتيجة سيئة، لقد أنقذت حياته مرة وأنقذ حياتي مرات.

بدأ الناس يسألون وبدأت أخلق عالمنا وأحداثنا وأقولها وأعيدها حتى صدقتها، قلت أنه ابن أخي الذي مات شهيداً في الحرب أعتني به، أين والدته؟ ارتبك ثم أجيب كانت على السفينة معانا، الله يعينك يا ابنتي، وهكذا صرت أري ملامح أخي فيه وهذا ما منعني كل مرة كانت تأخذني قدمايا إلي ملجأ للأيتام، كان إبقاءه معي صراع في وقت كنت أحارب للعيش وهو يمنعني من الموت، عشت فترة من "البين" بين كل شئ ولا أصل لشئ بين الحياة والموت بين الفقر والكد والكسل وكل شئ ولا أصل لشئ، هكذا حتى كثرت الأسئلة تركتهم ورائي وجئت بالطفل إلى هنا إستأجرت بيوتاً عدة وطردنا من عدة، كنت قاب قوسين من الإستسلام ثم يبعث الله ما يهون كل شئ فأكمل ثم يتدهور ما كان ولقد تعبت عزيزتي.

لم يعد بإمكاني الإستمرار.

لا أعرف ماذا سأقول لذلك الصغير حينما يكبر، لم تعد مخيلتي بتلك القدرة علي الإختراع لذا أريد أن أتخلي عنه، لا أتحمل ذلك الذنب.

في اليوم الذي وجدته فيه كان في ملابسه جيب به ورقة مبللة بها اسم، أريد البحث عن عائلته هنا، أعلم أن ذلك لا يبدو منطقي ولكن أي مما حدث كان، أشعر أنهم مازالوا على قيد الحياة فإن كان أحدهم هنا أو حتى أحد من أقاربهم سلمتهم إياه وإن لم يكن، أجد عذرا أقوله له يوماً من الأيام.

عزيزتي، أقول ذلك لأني أريد مساعدتك، لم أعد أريد مزيداً من اللامنطقية في حياتي أريد إجابات، أريد سبباً لأستيقظ غداً، وربما كان دفن خطيئاتي هو ذلك السبب، لذا عزيزتي إفعلي هذا المعروف من أجلنا نحن الاثنين.

التاسع من مارس 2018

عزيزتي سارة،

أعتذر عن مقاطعتي لمراسلتك لفترة ولو أني في الفترة الأخيرة كنت أكتب الكثير من الرسائل ولكن لا شئ منهم باسمك وأرجو ألا يحزنك ذلك فأنا كنت أخطط منذ فترة لزف خبر يُفرحك في هذة الرسالة لذا تأخرت.

حسنا لنتوقف عن الحديث برسمية ولنعد لسذاجتنا المعتادة، ما شغلني عنكِ في الآونة الأخيرة كان سرباً من الأخبار المفرحة التي انتظرت تأكيدها لأخبركِ بها وعزيزتي أخيراً سأسطر لكِ ما ليس بالممرض، لقد تركت عملي منذ أسبوع وبدأت في عملٍ آخر في المكتبة العامة هنا، كنت قد أفضت إلى صديق أعرفه أنني أبحث عن عمل آخر وكان هو على معرفة بأمين هذة المكتبة والذي كان يبحث عن مساعد، وهكذا حصلت على الوظيفة وحصل صديقي على معروف للأبد، لا أعلم إن كنت ذكرته قبلاً في إحدي رسائلي ولكن على أية حال فهو صديق تعرفت به في المكتبة بطريقة إستثنائية كما جرى الحال مع كل من أعرفهم، أظن عزيزتي أن المشكلة بي وأعتقد أحيانا أنه لو تقدم أحد مني وسألني عن اسمي وألقى التحية كما يفعل الأناس العاديون لما كنت ألقيت له بالاً وكنت أكملت طريقي وحدي حتى الممات، ولكن تلك الأحداث الغريبة في حياتي هي حقاً ما تُخلف لي الأصدقاء، على كلٍ إنه كفيف ورغم ذلك فإنه قلما يقرأ كتاباً كتبت بطريقة برايل، ناهيك عن عدم توافر أغلب الكتب بتلك اللغة ولكنه شئ يحب فعله كما أحب أنا كتابة الرسائل وسيكون من الغريب لو سألته لما يفعل ذلك لأنني لن أجد إجابة لو سُئلت ذات السؤال، وهكذا أرد له المعروف، ربما قرأت له ساعة بعد العمل أو خلال العمل إذا تسنى لي الوقت، أحببت حقاً العمل هنا، في البداية كنت أظنها مجازفة

كوني لن أرتاح في ظل هذا الهدوء القابع فوق رأسي طول اليوم والذي يفتح الباب أمام صخب العقل ليشتعل وهذا الأخير لا مفر منه، ولكني جربت وما حدث هو العكس تمام، أصبحت ساعات عملي محدودة وأصبح يومي منظماً، في البداية اختلطت علي أسماء الكتب والأقسام والرفوف ولم أكن أحسن وضع الكتاب في قسمه المعبر عنه ولكن ذلك يوماً بعد يوم صار أيسر، ولد ذلك لدي عزيزتي شعوراً غريباً وحاجة ماسة لتغيير شئ ما ، فغيرت أيضاً ترتيب أثاث البيت وتخلصت من أشياء لا أعرف لما كنت أحتفظ بها، وتعدى الأمر مجرد أوراق أو علب أو ملابس أو أشياء ملموسة فصار أقرب للعنة قد أُلقت علي بين يوم وليلة فصرت أنا في هيكل آخر وقالب آخر، قالب ربما لا يناسبني ولكنه يريحني، ربما هي هدية، هدية من الحياة، ذلك التغير الآتي بدون مجهود، تقذفه الحياة عليكي دون أن تطلبي ودون أن تمن، في وقته وفي معاده وبقدر، كم كنت أحتاج ذلك حقاً.

لا أعلم ولكن ذلك يذكرني بأمي، لا عزيزتي، لا يذكرني بها بالشكل الذي كنت أذكره قبلاً، بل أذكرها جميلة دافئة حية لا تبعث سوى الأمل والحب، أذكرها وهي تحكي لي عندما تسمعني أشكو من الدراسة عن أحد أقاربها، هو ابن أخت ابنة حفيد شخصاً لا أعرفه، وبعيداً عن أصله وفصله هو باختصار ذلك الشخص الذي ربما وصفته أمي بأنه بائس دائم الشكوى لا يدرك لطف الله ولا يرى سوى نصف الكوب الفارغ، وربما أصفه أنا بعد أن تضيف أمي كلمة "مثلك" بأنه باحث متسائل، يبحث عن موقعه ومكانه من الحياة يخنقه شعور أنه لا ينجز مهما حاول وربما كان واقعياً يرى الحقيقة كاملة غير متغافل عن نصف الكوب الفارغ، كنت أقول لها هذا ليس لأني أعرفه أو ألهمتني حكايته ولكن أمي قالت "مثلك" وما كنت أدافع سوى عن ذلك الجزء، على أية حال تقول أمي كان سائقاً لسيارة أجرة

يشتكي طوال اليوم وكل الأيام يقول العمل صعب ومرهق ولا يضر إلا بالقليل، ويذهب صباحاً متكاسلاً ولا يتقن ما يعمل إنما يعمله من باب المسميات، وكانت والدته رحمها الله لا هم لها سوى الدعاء له ليل نهار، وفي يوم طرق بابهم امرأة وأولادها طلبت منه أن يوصلهم بلدة نائية تقبع فيها عائلتها لأن زوجها قد توفاه الله ، بالطبع رفض فالأجر زهيد والمشوار طويل والعمل صعب وكانت تلك المرأة لا تعرف أحداً سواهم لذا أصرت أمه عليه أن يذهب وألا يأخذ المال تأديباً له، وفعل، عندما عاد من تلك الرحلة تقول أمه تبدل حاله كما لو كان ابنها قد خطف وأتوا بآخر بديلاً عنه، فصار يذهب باكراً للعمل ولا يأني جهداً فيه وأصبح أصبر على ما يفعل متقناً له فسبحان مبدل الأحوال، ثم تنهي أمي قصتها المثالية بدعوة لي، هل أخبرتك أن أمي أسوأ رواية قصص؟ أحببت قصص جدتي أكثر، ولكن على كل حال فور ما انتهت أمي من قصتها أخذتُ أحولها لقصة منطقية، فأخبرها حينما تقول أنه شعر بأنه يمتلك الكثير حينما وجد تلك العائلة المتفرقة البسيطة شعرأنه يمتلك يبتاً وعملاً وأهلاً وعلم أن الله على إختلاف الظروف قد أعطى لكل ما يحتاج، أخبرها أنه ربما مثل ذلك لكي لا تجبره أمه على مثل تلك الرحلة مرة أخرى، تخبرني بأن الله قادر على أن يغير أحوال العباد ويسبب الأسباب، فأقول ونعم بالله ولكن الأمر يأخذ وقتاً أطول لإحداث تغيير جذري مثل ذلك، فتستغفر الله وتقول أنتِ وفلسفاتك، رحمها الله أمي كانت تعرف أن منطقي سيتعرى يوماً ما، ذكرني حالي بذلك اليوم وتلك اللحظة الفارقة بين شخص وشخص، ربما كان يرى نصف الكوب الفارغ ولكنه أدرك أن النصف، النصف فقط هو ما يحتاجه وما جعله يدرك هو هدية الحياة التي تُعطى بلا مجهود ولا طلب فتأتي على قدر.

كدت أنسى عزيزتي، اليوم زارتني يُمنى وقد كنت طلبت منها المساعدة في إيجاد أهل الصغير إيماناً بإحتمال أن أحد من أهله والذي كان معه ذلك اليوم المشئوم كان آتياً لباقي عائلته هنا، بالطبع لا يوجد دليل ولكننا ننبش ربما وجدناً طريقاً جديداً، بدت هي مشرقة عن كل مرة أقابلها فيها وأظهرت لي امتنانها رغم أن علي أنا أن أظهر إمتناني، تكلمنا عن أشياء كثيرة غير هامة وفي نهاية لقائنا اعطيتها تلك الورقة التي وجدتها في ملابس الصغير حين وجدته أول مرة، كانت صغيرة مقطوع جزء منها ولكن قيمتها في قيمة الاسم المكتوب عليها الذي لا أعرف أهو اسم الصبي أو اسم والده ولكنه سيكون مفيداً على أية حال وكانت الورقة لتكون أكثر أهمية لو أن ذلك الجزء الذي رُسم عليه عنواناً لم يُمزق وقالت هي أنها ستبحث عن أسماء اللاجيئين الداخلين تلك البلاد وسنري ماذا يمكن فعله، أتظنين أننا سننجح؟

السابع عشر من مارس 2018

صديقتك الحالمة

عزيزتي سارة،

إنه لا يعلم، إن الصغير لا يعلم بما يدور حوله ولا يشعر بغرابة وجوده بيننا، وأخشي أن تظهر تصرفاتي شيئاً له، بالطبع أعلم أنه صغير السن ولكنه يحمل عقلاً مشيب أتعجب له كثيراً ولقدرته على فهم الأمور ببساطة فيصمت حين لا يكون الوقت مناسباً للكلام وإذا تكلم فهو يقول ما يجب أن يقال بالقدر المعقول وهو ذو الخمس، لذا لن يطول الوقت حتى يكتشف أن الأمر يتعلق به.

وجدت يمنى مكان شخص يحمل نفس الاسم ونفس الجنسية في المقاطعة علي الجانب الآخر من البلاد، لا أعرف بعد صلة قرابته بالصغير ولكنها علمت أنه آتى مع زوجته وابنته إلى هنا بنفس الطريقة التي جئت بها والصبي إلي هنا.

لم أرد عليها بعد، لا أعرف ماذا اقول.

ماذا لو كانوا عائلته فعلاً هل أتخلى عنه، هل سيتركني أتخلى عنه، فكرت أنه ربما قد ظنوا أنه مات وصلوا وبكوا عليه وانتهى الأمر بالنسبة لهم، لذا فهم لن يخسروا شيئاً كانوا قد خسروه من قبل، أما عنه وعني فقد إعتدنا وجود بعضنا الآخر هو يظن أني عائلته وأنا لا أعرف عائلة غيره.

بعد أعوام من الان حينما يعرف، سيكرهني ويلومني ويصفني بالأنانية وهذا كله حقه، حقه أن يغضب ويصب ذلك الغضب علي كما فعلت مع العالم، سيظل طوال حياته ربما يبحث عن شئ أضاعه قبل أن يحصل عليه فلا هو عالم ما هو ولا هو بممسك به مثلي أيضاً.

آه يا سارة لا أريد له أن يُعذب في الأرض مثلما كنت ولا أريد أن أخسر كل ما يبقيني ولا يحق لي، المشكلة عزيزتي أنه لا يوجد بيننا مذنب تستطيعين ذات يوم أن تؤشري بأصابعك نحوه وتكرهيه وتُكيلين له العذاب.

أنا فقط تعبت من كل هذا ولا أريد أن أسير على قطع من زجاج مكسور، لو رأتني أمي ماذا قالت.

منذ سنوات وأنا أكمل السير في الطريق لأسخر من منطقها، لأقول لها ها أنا أسير واعمل واستيقظ باكراً وأبذل كل ما في وسعي فأين تلك السعادة، لما لا تطاردني!

كنت سأظن أنني ساكون سعيدة باثبات منطقي ونفي منطقها ولكن لم يحدث.

تعلمين عزيزتي أنني لن ابقيه، لن استطيع أن أخذ ما ليس لي، ولا أن اسلب أحداً حقاً لأن رغم كل ما حدث، ستظل تلك الفكرة تحدق في وتود لو أن ذراعيها تمد لتخنقني ولكني لن أسمح لها لأنه يستحق رغم كل ذلك أن يحصل علي ما لم أحصل عليه.

عزيزتي سارة،

أرجوكِ خاطبيني،لأن العالم صار مكاناً غريباً وأنا أطالب بركني فيه.

الثاني والعشرون من مارس 2018

المتسائلة .

عزيزتي سارة،

اليوم خضنا شجاراً طويلاً أنا وذلك الصغير، انتهى على إتمامه لما قلت ليس بحكم شئ إلا العادة، لم أعهد بمثل سنه قدرة على المشجارة بذلك المنطق وتلك الطريقة، بل لم أعهد منه أن يدوم حديثنا طويلاً، كان يريد الذهاب إلى البحر كباقي رفاقه الذي سمعهم يحكون عنه ألم أقل لكِ سينبش حتى يصل للحقيقة؟ ولكن ما لم أعلمه أنه سيبدأ عمله بتلك السرعة، رفضت بالطبع وعددت له الحجج ولكن أياً منها لم يتضمن كوني آخر مرة ذهبت إلي البحر عدت بعدها وأنا أحمل طفلاً ولا أن بيننا عداوة قديمة حينما سرق والداي مني، أو لأني لا أريد لذلك الجرح أن يُفتح مرة أخرى، لم تتضمن أسبابي التي قلتها له أياً من ذلك ولكن رغم أننا لم نذهب ورغم أني من فزت في النقاش إلا أنه أزعجني كما لو كنت ذهبت.

لم نتكلم بعدها في شئ وصارت الأمور كما تسير كل يوم ولكن ما أريد أن أقوله لكِ حقاً حدث منذ ثلاثة أيام حينما فتحت باب البيت وأنا ذاهبة للعمل وجدت قطة أمامه، سببت لي الذعر في البداية ولكني لم أعبء بها ولم تعبئ هي بي فخرجت وعدت وهي جالسة مكانها لا تبارحه ولا حتى تتحرك لإقترابي أو إبتعادي عنها كأنها تمثال يتنفس، ذلك اليوم قدمت لها الطعام وجلست والصغير نشاهدها تأكله، ذكرتني بالقطة ذاتها حين كنا في البيت، كنت أنا وزوجة أخي نربيها خفية عن أمي، كانت صغيرة البنيان مزجت ألوانها بدقة بين الأسود والأبيض والزيتي وكان لعينيها لوناً أخضراً مميزاً، أو قولي لم يكن لها ما يميزها سوى ألفتنا بها واعتيادنا عليها، في البداية سمعنا صوتها صغيرة عندما كنت أنا وزوجة أخي نجلس في حديقة البيت ذات يوم، سمعتها هي أولاً و وجدتها هي أولاً وهي من قررت أن نتكفل بها، و

وافقت أنا، رغم أن دوري لم يتعدى إعداد الطعام وكتمان السر ومشاهدتهما تلعبان ولكني كنت شريكة في مثل تلك الجريمة، قررنا وضع علبة من الكرتون مغطاة بأكياس خارج المنزل تقيها برد الشتاء وتحميها من أشعة الشمس وكذلك لأن أمي لن تقبل بقطة من الشارع في بيتها، لذا أبقينا الأمر سراً، أظن أنها حتى اخفت الأمر عن أخي، لا اعلم لما ولكنه ربما تحقيق لتلك الحياة الخاصة والمساحة التي تبقيها بعيدة عن كل شئ فتستطيع بذلك الشعور بخصوصيتها وأنها وحدها تمثل حياة خاصة لا دخل لأحد بها، أو ببساطة لأنه لم توجد مناسبة.

كنا نطعمها مما نأكل، لا يهم ماذا المهم أن نبقيها على قيض الحياة، كان من عاداتنا أن نجلس مقرفصين نراقبها تخرج لسانها الصغير محاولة إلتهام الطعام أو نجلس معاها أطول فنشاهدها تتثائب وتستعد للنوم أو تلعق جسدها، في يوم خاض أخي شجاراً مع زوجته وكنت أجلس في الحديقة أمام القطة واستطعت حينها رؤيتهم من نافذتهم ولكني لم أبالي فأسبابهم كثيرة، حينها خرجت هي من المنزل وكان وجهها محمراً من الغضب فجلست بجواري، كانت تلك أول مرة تجلس القطة على قدم إحدانا، لا أعلم أهي دموع فَرحة بتلك الألفة أم حزناً على تلك المشجارة ولكنها نزلت على أية حال.

اختلفنا أنا وهي في عدة أشياء بل كانت هي النقيض لما كنتُ عليه ولكن أعتقد أننا أكثر من استطاع فهم الآخر في هذا البيت، كانت بالنسبة لي في البداية لغزاً لا في صفاتها وتكوينها بل في وجود تلك الصفات أصلاً، فكنت أعرف ما تتصف به وكانت لي قدرة عجيبة على إستنباط أفعالها التي لم تفعل بعد ولكنني عجزت أمام لما كونها هكذا ربما لأنني لم أكن هكذا، كانت تمتلك صفاء خاصاً وكانت لها القدرة على أن تشعرك بالراحة أينما كنت وكانت سمحة طيبة القلب

ولا أعلم لما كانت بهذا الهدوء بل إن ذلك الهدوء ناقض تماماً ثورتي وافتعل مقارنات عدة من أمي ولكني لم أكن أنزعج لأن هدوئها وثورتي توازنا ولم ينفي أحدهما الآخر، حينها بدأت هي تبالغ في إهتمامها بالقطة، فبعد كل قصف تخرج مسرعة تطمأن على وجودها، وكانت القطة تغيب إذا بدأ الحصار وتعود بعد ذلك كما لو كانت تعود لتطمأنها، خلال الحصار رغم قلة الغذاء كانت زوجة أخي حريصة على إطعام تلك القطة والعناية بها وكأن روحها تهم بين ملايين الأرواح في السماء.

ذكرتني تلك القطة بها، ولولا أني أعلم أن تلك القطة ماتت يوم غادر أخي المنزل، لكنت قلت أنها اتبعتني إلى هنا، ولكني عزيزتي فهمت الرسالة وغادرت هي بعد أن فعلتُ ولم تعد أمام المنزل مرة أخرى.

ربما كما كانت زوجة أخي ترمم قرارتي في الماضي بعثت لي بمثل تلك الرسالة لترمم قراراتي الان، فكرت هل كان من الطبيعي أن نتركها هناك، أعلم أنها رغبتها ولكن أحياناً تكون رغبتنا ألا نحقق ما نقول وألا يسمح لنا الآخرين بذلك، هل كنا على حق عندما عاملناها بمثل طبيعتها فتركنها لما تختار أما كان يجب علينا أن نقف وقفة أخي ونجبرها على ما نظنه الأفضل لها، أتظنين أنها وجدت طريقاً بين الجثث لتكون حيه، أم أنها بكل هدوء ارتضت من الموت حضوره، سكونها جعلنا نظن أنها دائماً بخير فهل كانت؟

لو أنها استطاعت وعائلتها الهرب فأين سيكونون الان، لو كان هربها نتج عنه ضياع صغيرها منها، هل كانت ستبحث عنه أم ترتدي الأسود بقية الحياة، لو كان بيد من وجده إعادته هل يعيده؟

لا أعلم إن كانت تلك الحكاية صحيحة أم أنني اخترت الخطأ بين الآف الحكايات ولكني أعلم أن علي إعادة ما وجدت لأن خلفه ربما عائلة كاملة تنتظر.

عزيزتي في اليوم التالي خضنا أنا والصبي شجار آخر، رفض أن يجلس عند والدة يمنى وطالب بكامل حقوقه لمعرفة إلى أين نذهب ولكن لتلك السلطة لذة حقاً، حينما تقولين الشئ ولا يقدر أحد على تغييره، لم أبذل جهداً في فرض رأيي.

ذهبنا أنا ويمنى بعدها لعنوان ذلك الاسم الذي وجدته، كانت أول رحلة لنا سوياً، لم تكن الأفضل ولكنها أتاحت لي ولو حتى تخيل ذلك اليوم الذي نقوم به برحلتنا الحقيقية عائدين، ركبنا الحافلة ولكن تلك تختلف عن الأخرى التي ركبتها سابقاً، اختلف الناس واختلفت وجهوهم ومقاصدهم واختلفت الصحبة ولكني عبرت الاثنين، اتخذت مقعداً بجوار يمنى وكما فعلت قديماً فعلت الان، فاستغرقت الرحلة في مراقبة الناس ولكن هذة المرة مع محاولة استنباط نواياهم من هذة الرحلة، هذا الشعور يا سارة، كان غريب حقاً، شعور غمرني حتى سُلامياتي، لا لم يكن الخوف أو التربص أو عدم الإنتماء أو حتى الحزن والغضب بل كان شيئاً آخر حينها، ولكنه ظهر حينما أرجعت رأسي للوراء و درت بنظري في المكان، رأيت الخضرة خارج نافذة الحافلة و وجوه الناس داخلها، يتكلمون، يضحكون، جامدون، جعلني ذلك الشعور أغمض عيني وأنام، دون كوابيس، جعلني أتمني لو أنه كان شخصاً فأُمسك به ولا أفلته أبداً ولكن حتى الأشخاص عزيزتي لا يمكننا الإحتفاظ بهم للأبد ولا حتى الأشياء ولا يدوم سوى وجه الله لذا دعوت أن يزورني ذلك الشعور بين حين وحين.

ربما هي حماسة الحقيقة أو فرحة فعل الصواب لا أعلم، أتكون الألفة عزيزتي، تلك التي تستطيع أن تغلق عيني وتمسح على ظهري فأنام،

أو تجعل عبور الغرباء حولي شيئاً لا يثير الفزع ولا يحث الذكريات، أتعلمين طال الطريق ثلاث ساعات، هذه المرة عددتهم، فيهما تكلمنا ويمنى عن الكثير، كتشجيعها لي لأني أسير على الطريق الصحيح أو شكري لها على مساعدتي أو على توقعاتنا لما سيحدث بعد قليل، وعن الصبي وكيف نخبره وعن ماذا نقول وعن الكثير.

قصرت تلك المسافة كثيراً، بيني وبين يمنى أصبحنا وإن لم نفهم بعضنا كما يجب نحافظ على قدسية مشاعر الآخر، لذا لم تعترض حينما قلت لها ألا نخبرهم بأمر الصبي حتي نعلم ماذا نقرر، وهكذا عزيزتي وصلنا إلي البيت بعد أن سرنا في عدة شوارع وسألنا الناس وبعد أن تخطينا البيت بأميال.

عزيزتي إليك تلك الفكرة، على مدار التاريخ إذا استولى حكام بلد على أخرى ماذا يفعلون، إنهم ينقلون وجودهم إلى تلك البلدة، فيبنون البيوت والمتاحف والمعابد على طريقتهم، طريقة تبين سجيتهم وتعبر عنهم ويمكنك تفريق حضارة عن حضارة باختلاف الهندسة، كان شكلاً من أشكال الحفر علي التاريخ.

لا أعلم لما حضرت تلك الفكرة عندما كنت أقف أمام منزلهم، ربما لأنه من الخارج كان لا يشبهنا ولكن من الداخل شعرت أني أعرفه جيداً، خلق ذلك الاختلاف مزيجاً رائعاً ربما أنه ولوهلة أشعرني بأني على أرضي وأن الزمن لم يمر.

طرقنا على بابهم ونزلنا عدة درجات من أمام البيت، سمعنا بعض كلمات عربية لم تكن واضحة ولكن بعدها فتح فتى الباب، كان قعيداً ويمكنك أن تلاحظي ساقيه المبتورين من خلال بنطاله المعقود، نظره تحول بين شعر يمنى وحجابي، لابد أن الأمر إستغرقه بعض دقائق ليختار لغة يتحدث بها، ولكنه نظر لي وسألني إن كنا من إحدى

الجمعيات الخيرية، فنفيت وأخبرته أننا نبحث عن شخص وكدت ألفظ اسمه حتى ظهرت فتاة تبدو في مثل عمره تمسك بحجابها المفتوح من عند رقبتها وتغلقه بيدها وتنظر إلينا، لفظت الاسم، فأصرت أن ندخل أولاً، رفضنا فحرك الفتى كرسيه فاتحاً لنا المجال فكشف عن أطفال خلفه يلعبون، فأشارت يمنى إلي ودخلنا، ساد الصمت لفترة فقاطعته يمنى بسؤالها إن كانوا توأم، فضحكت الفتاة وأكدت، كنت انظر في وجوه الأطفال الذين يلعبون محاولة إيجاد شبه بين أحدهم والصبي حينما كررت يمنى السؤال عن الرجل الذى يحمل الاسم الذي وجدناه على الورقة، فأجابتها الفتاة بأن ذلك الرجل وعائلته قد رحلوا من هنا من سنة أو أكثر بعدة شهور وأنهم كل ما يعرفوه عنه هو ما بين البائع والشاري، لذا أكدت يمنى أنها في حاجة لأي معلومة تدلنا عليه، فقالت أن والدتها قد تعرف أين ذهبوا ولكنها الان في العمل، أصرت على بقائنا ولكننا فضلنا قضاء الوقت خارجاً ثم العودة لاحقاً، كان هذا قراري، ودت يمنى لو أنها جلست وألقت بعض الأسئلة.

لم أكن أعلم أن الموضوع سيطول بهذا الشكل وأن تلك الرحلة ستسلمنا من شخص إلى آخر، توقعت نهاية بسيطة سهلة تنتهي بفرحة أحدهم أياً كان وحزني بضع أيام ثم لا أعرف ولكن ربما كنت سأستعد لرمية القدر التالية.

بعدها ذهبنا إلى مطعم مجاور، تحولت الساعة لساعات ونحن ننتظر، اتصلت يمنى بوالدتها وكلمتُ أنا الصبي، وانتظرنا حتى جن الليل ثم عدنا، طرقنا الباب وانتظرنا خارجه وطلبت منها أن تلاقينا خارجاً، كانت صغيرة ولكن وزنها أعطى لها سناً أكبر وأبطأ حركتها، وكانت باسمة، تنزل الدرج على مهلٍ، فتنظر أين تخطو بقدمها ثم تعيد النظر إلينا محملة بالإبتسامة، لا أعلم أهو شكل الجسد أم هي تلك الإبتسامة

ولكني تذكرت جدتي، شعرت براحة تجاهها وعلمت أنها ستصدقنا القول وتُذهب روعنا.

سحبتنا نحوها وقبلتنا على طريقة الجدات، كم كنت أمقت ذلك السلام وكنت أتجنب المرور ببيتك صغار حتى لا تسلم علي جدتك بتلك الطريقة، أعتذر يا سارة ولكنها الحقيقة كانت لجدتك طريقة في تضخيم الأمور وجعلها لا أعلم ربما أكثر ظهوراً حتى أنتِ كنتِ تعلقين على ذلك فنضحك سوياً، لا يهم على أية حال، دعتنا للدخول وقلنا لها أنه أمر يسير، بضع دقائق، فافترشت السلم وبدأت حكاياتها، بدأت من حيث بدأ كل شئ، نقطة الحبر التي سقطت علي الورقة ولم تنتهي أبداً، حين تشابهت كل خطوطنا وحملت رسائلنا نفس الكلام فأصبح الإختلاف فيهم طفيفاً وأصبحنا أرقام تزيد كل يوم، تشاركت معانا أشياء جديدة وكأن تلك الملامح على وجهينا تعيد كلانا رحلة الآف الأمتار وتجعلنا نعيد لف الخيط المشدود، حكت لنا عن أرضها ولمعت عيناها حينها وحكت لنا عن بيتها ودجاجاتها وعن عائلتها وكيف كانوا وكيف هم، وأخذتنا بين الوديان وصعدت بنا أعالي الجبال ونست أنها افترشت الأرض وجعلتنا نشعر أن افتراش أرض غريب يعيدنا لأعتاب الوطن.

قالت أن الأرض طرحت من بطنها خيراً كثيراً، طرحت من بطنها بيتاً لها ولأولادها وأرضاً وما عرفت غير الزراعة وزوجها وهكذا كانت هناك على رقعة من الأرض حياة إنبثقت على الأرض، وجائت قذيقة من السماء محتها، فاستيقظت هي بأولادها وتحمد الله على ذلك ولكن زوجها رفض أن يترك الأرض فاستوت جثته بجوار البيت وربما أطراف أحد أبنائها فعلت، وها هي الان تكافح لأن تخرج من الأرض حياة مرة أخرى.

نسينا ما جئنا من أجله ونسيت هي لما تحكي لنا، حتى وصلت للجزء الذي تصل فيه إلى هذا المكان، أخبرتنا أن معرفتها بهذا الرجل أنه كان رجل سبقها إلي هنا فاستتبت أمور وازدهرت وكان يساعد الناس ممن تشاركوا مصيبته فساعدها وباعها منزله بسعر زهيد، وأعطتنا عنوان مدرسة قالت هي له.

عزيزتي سارة، إن عليكي أن تألفي فقدانك لشئ حتى تجدي ريحه مرة أخرى.

الثامن والعشرون من مارس 2018

الباحثة

عزيزي آدم،

أربكتني رسالتلك إلى حد بعيد، أخذتني إلى منطقة غريبة بالتفكير وعجز منطقي أو حتى عاطفتي أن يفهما ما تحاول أن تقوله وبين يوم وليلة استيقظت لأجدني أعتنق فكرتك وأجدها المنطق الوحيد الذي أدركه وأشعر به.

هل رسائلي تحيرك كمثل هذة الرسالة أم تجد تشابه فيما أكتب لما تحس؟

في البداية فرحت بالخبر وشعرت وكأن شيئاً رائعاً سيحدث لي أنا الأخرى، فكرة غبية ولكنها خطرت، ثم ظننت أنك جننت أو ربما هي صدمة قد تُشفى منها بعد أيام بعدما تدرك حقيقة الخبر وبعدما تزول أثاره من على أحذية أفكارك ولكني أجدك تخبرني أن تلك الفكرة خطرت لك أيضاً وأنك تنفي إحتمال حدوثها لأنك تراسلني بعد الخبر بأيام وبعدما تأكدت أن أفكارك حافية الأقدام، علمت حينها لما تراسلني وأراسلك وكأنه سر قد إنكشف لعقولنا اليوم ولكننا شعرنا بأنه موجود يوماً، أقول أن مسيرنا متجاور وأرضك التي تسير عليها تجاور أرضي وعدد الأمتار التي مشيتها تكافئت معك، لذا ربما ترانا مترافقين على طريق الشعور، غريب هذا التعبير ولكني أعرف تماماً أنك تفهمه وهذا ما أعنيه، لكلٍ منا _ولا أعني أنا وانت_بل الجميع رحلات داخلية يموتون قبل أن ينهوها ذلك الطريق لفهم النفس الذي قد تصل إلى لحدك دون أن تفرح بوصولك لنهايته وقد تفعل، ذلك الطريق الذي تحاول من خلاله أن تفهم العالم ونفسك ولماذا وأين ومتى، طريقي وطريقك وطريقتنا في عبورهما تشابهت فانت تعرف وتدرك وتشعر بما أقول وأنا كذلك ولهذا عزيزي نراسل بعضنا

البعض ليس لأننا نمتلك القدرة على فهم الكلام بل لأننا نمتلك القدرة على أن نفهم ما لا يُقال وأن نتوقع ماذا يفكر أحدنا الآخر وعند أي عقبة في الطريق إلى نفسه وقف، أراسلك ربما لأنك تذكرني بها أراسلك ربما لأنك تذكرني بسارة، تلك التي قلت لك في أول رسائلنا أنها صديقتي التي أراسلها.

بعدها أدركت أنك ما قصدت أن تحيرني برسالتك بل إنك قد كتبتها لأنك حتى لا تفهم لماذا تتصرف على هذا النحو وكنت تتوقع مني أن أفسره لك، وأقول لك قد سبقتني في الطريق فوقعت فيما لم أصل إليه بعد، ظللت عاكفة أيام أحاول حل الأحجية.

عندما أخبرتني بأمر تلك العملية شعرت أنها رسالة تحمل الفرج وأن عقدتك قد حُلت وأن الرسالة تتمحور حول فرحتك بهذا الخبر ولكنك لم تطل الحديث بل سطرت الخبر جامداً قصيراً مختصراً غير مُحللٍ له ولا متسائل عنه "قد أجري عملية تعيد لي بصري قريباً" ثم اتبعت، "أخبرني الطبيب بذلك من أسبوع"، وإنتهى الخبر ثم أعدت أنا قراءة السطر الذي يليه عدة مرات لأتأكدت أن ترتيب الحروف كان صحيحاً وأنك تعني ما تقول، ربما وقفت أتسائل أي مجنون هذا يفكر في رفض مثل تلك الفرصة، شرحت لي دوافع منطقية وغير منطقية وحاولت أن تقنع نفسك قبلي بأنها أسباب لتلك الرغبة ولكنك فشلت فلجأت لي لخلق سبباً يفسر رغبتك، طرقتُ كل الأبواب وفكرت لما قد يرفض المرء كل ما فنى حياته في إنتظاره وهدهد روحه ليبقيها ساكنة رغم فقدانه، في البداية قلت هو طول الإنتظار، ذلك الذي يهين المرء ويظهره ضعيفاً أمام ما يتمناه وربما أن لك كرامة تضعها نصب عينيك فما عدت تنتظر ذلك الشئ مرة أخرى، ربما أردت أن تخبر نفسك أنك ترفعت عن أحلام أبت إلا إذلالك منتظراً لها، ولكن لا إنها ليست الكرامة فإنها وإن كانت بينك وبين نفسك فستهوي عنها

وتلاقي أحلامك بنصف إبتسامة، ثم قلتُ هو ربما الخجل، أن ذلك الشك الذي يصيبنا أثناء الإنتظار في حتمية تحقق تلك الأحلام يوماً قد أصابك وبعدما تحققت شعرت بالخجل وعدم الإستحقاق، ولكن لا ذلك ضعيف أيضاً، ربما هي صدمة الوصول وظهور ذلك السؤال المزعج ماذا بعد؟ ربما هو الخوف من غد وألا تبلي حسناً في زيك الجديد، أن تشاهد ما لا تريد أن ترى، عزيزي بعد عدة أيام أقول لك لا يهم أياً من هذه الأسباب صحيح ولكن ألا تشتاق، ألا تريد أن ترى، ألم تراودك تلك الفرحة لذلك الخبر، إن طول الإنتظار مهما بدا أنه يقتل الفرحة فإنه لا يفعل، إنه يخدرك حين وصولها ولكنه لا يقتل بداخلك ذلك الإحساس.

أعلم ذلك لأنني ومهما طال الوقت سأظل أنتظر ذلك اليوم الذي أعود فيه بكل وجداني مهما خدرني الإنتظار فاعلم أن فرحته موجودة في ركنٍ ما، سأفرح بالوطن سأفرح بالبيت وسأفرح بروح عائلتي في المكان وسوف أفرح حين تكتب لي سارة.

عزيزي آدم مهما كان ذلك الشعور بداخلك الذنب، الخوف، الغضب، لا تدعه يخدعك وقم إلى حلمك بكل طاقتك وإلقاه باسماً متفاخراً بكل كرامة ولا تأخذه أبداً على استحياء.

ملحوظة، أنتظر أن تخبرني في الرسالة القادمة ما هو لونك المفضل.

الأول من إبريل 2018

صديقتك

عزيزتي سارة،

أذكر إرتباكي في المرة الأولى حين راسلتك وكم بدا لي هذا الأمر غبياً ولكن على أي حال سأقوم به، وأقول لكِ إن الخجل الذي كنت أشعر به وذلك الشعور بالغباء لا يساوي شيئاً أمام ما أشعر به الان.

أتذكرين تلك الليلة حينما استطعنا أنا وانتِ الخروج من المنزل بعد جلوسنا أسبوعاً مطوقين بما يحدث خارجاً والنيران المستعرة في كل مكان والجثث المتناثرة، حينها افتعلنا شجار غبياً أذكر أننا كنا في البداية نتحدث عن أسماء المدن الغريبة ولما قد يسمي أحدهم مدينة بهذا الاسم، قلتي انتِ أن للإنسان حظ من اسمه وقلت أنا بمنطقيتي أنه وعي الإنسان هو ما يخلق تلك الأفعال التي تتشابه مع اسمه ولا أذكر كيف أحتد النقاش يومها وكيف سار كل منا في اتجاه ولكن أتذكرين حين قلتي أن "تَدمُر" تعني البلد الذي لا يقهر، هذا كل ما علق في ذاكرتي بعدها عندما رحلتي، قلت تتدعي أنها لا تقهر وها هي لا يظهر عليها سوى القهر، كنت غاضبة لا أعلم منكِ أم منهم أم من نفسي ولكن "تَدمُر" لم تفارقني أبداً وذلك التعريف الغريب رافقني كظلي، كنت أسخر من ذلك المنطق غضباً منكِ لأنك عزيزتي لم تتركِ لي منكِ سوى هذا، لذا كنت أراه حين تصعد روحاً ويسقط صخراً، كنت أراه في حملي لحقبيتي وترحالي، كنت أراه على المخيمات، وكنت أراه في سفينة تقلنا إلى مصير مجهول، وفي مياه أخذت ما أخذت ولم تبقي لي شيئاً، وكنت أراه في كل مرة أراسلك فيها، كنت في ظاهر الأمر أسخر منه وبشدة ولكني في باطن الأمر وددت لو كنا فعلاً لا نقهر وأن تَدمُر قد التصق بنا ولم يغادرنا أو يغادر الوطن.

أعوام عزيزتي، أعوام ورغم تظاهري بعدم ذلك وأنا أحاول أن أثبت منطقك عزيزتي وأن أرى تدمرية الأشياء حولي، لذا عندما طالت السنوات وانا أبحث قررت أن أراسلك لأسرد لكِ عزيزتي عدد المرات التي كنا نقهر فيها وأننا لم نمتلك حظ اسم مدينتنا ولا هي بالأصل امتلكته ولكن عزيزتي إن منطقك صحيح كمنطق أمي، تطلب الأمر الإيمان به أولاً حتى يُرى، إنني عزيزتي أقول لكِ ببساطة أننا لا نقهر لأننا نحاول رغم مأساوية النتيجة، لأننا نحاول رغم أننا نعرف أن الفوز سيقف على الجانب الآخر، لأننا نحاول في الظلام رغم علمنا أن محاولاتنا لن يراها أحد ولن يقدرها ولن تغير العالم ولكننا نؤمن بها وبقدرتها فأصحبنا لا نقهر، جدتي وأخي وعمي وأبي وأمي، كلهم رأوا تلك الحفرة في الطريق بل إنهم عرفوا أن لا طريق بعدها وأن السقوط في الحفرة حتمي ولكنهم أكملوا الطريق، إنهم كانوا حقاً تدمريين.

لا يقتصر الأمر على عائلتي فقط بل على كل من قابلته تلك التصرفات الصغيرة كيف لم افهم حينها ماذا تنم عنه، ماذا تريد أن تقول وتريد أن تزرع، كلهم عزيزتي كانوا منتصرين بطريقة لم أرها ولم أعهدها.

إن الحياة لا تُحكى إلا من خلال الموت، ولم يكن فزعي في السنوات السابقة للموت وحده بل للطريقة التي مزجت بها الحياة والموت في هذة الحرب، إن الحرب يا عزيزتي قتلت من قتلت مرة واحدة وللأبد ولكن الحزن قتل من بقى عدة مرات، أقول لكِ إنه لا يجدي نفعاً، السؤال كيف ولما، لأن الحياة لا تأتي إلا مرة واحدة لا تتكرر لتتيح لك البحث عن إجابات ولأن الظلم لا يبرر ولا ينبغي له، إنما كان الجواب في تقبل الموت وإحتضان الحياة ومعرفة ما بقى والحفاظ عليه.

عزيزتي أردت أن أخبرك في هذة الرسالة أنني وجدت ضالتي ورأيت ذلك الطريق مرة أخرى ولم يعد يحزنني ضياع ما ضاع ولا أريد أن أعرف كيف ضاع، ببساطة عزيزتي لأنك على حق ولأنني لا أقهر لذا سأحاول رغم معرفتي بالنتيجة ولهذا راسلتك رغم معرفتي بأنني لن أجد ذات يوم إجابة.

إنه الخطاب الأخير عزيزتي، أعتذر عن ذلك وأشكرك عليه فقد ساعدتني كما تفعلين دائماً، أردت أن أخبرك أنني قمت برحلتي الأخير للبحث عن عائلة الصبي، ذهبت وحدي هذة المرة إلى ذلك الرجل صاحب المدرسة ليس لأني أريد التهرب فلم احبذ وجود رقابة يمنى، بل لأني على يقين بأني سأفعل الصواب رغم تلك الأعاصير بداخلي، فهذا ما فعلته دائماً، لذا ذهبت، أخبرني الرجل بأنه ليس له صلة بذلك الصبي وأنه ربما قد سمع أهله بأنه يساعد من مثلهم ليستقروا فحملوا ورقة عليها اسمه وعنوانه، لم أفرح ولم أحزن لذلك الخبر فقط اطمأننت لوجود تلك القصة لأخبره بها يوماً ما، شكرته وأعطاني رقمه إذا احتجت المساعدة ورحلت.

بدا القمر ذلك اليوم أجمل وبدت الأرض أخف، و وددت حقاً لو لاحقت طيور السماء وأصبحت ولمرة منذ زمن أشعر بالحياة.

شعرت أن أحدهم يراقبني ويبتسم لما فعلت، ربما لمحت طيف عمي الأعرج ولكن الأكيد أني رأيت ذلك الطريق الذي يجب علي إتمامه.

ثم سمعت صوتاً ينادي باسمي مرة أخرى، وكأن الحياة رضت عنا ما إن رضيناها وكأن محاولتي قدر لها بغير الفشل وأخيراً عزيزتي،

كوني بخير.

لا يهم التاريخ هذة المرة لأنها رسالة لكل حين.

صديقتك التدمرية